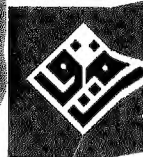


وسط الجزيرة العربية وشرقها

تأليف: وليد جيفور بالجريف

ترجمة: صبري محمد حسن



المشروع القومي للترجمة

269

الجزء الأول

اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

دوع القومي للترجمة

وسط الجزيرة العربية وشرقها (١٨٦٣ - ١٨٦٢) (المجلد الأول)

تأليف

وليام جيفورد بالجريف

ترجمة

صبرى محمد حسن



قائمة محتويات

المجلد الأول

الصفحة

١٧	الفصل الأول - الصحراء وسكانها
٦٧	الفصل الثاني - الجوف
١١٥	الفصل الثالث - النفود وجبل شومر
١٧١	الفصل الرابع - الحياة في حائل
٢٢٥	الفصل الخامس - أحداث البلاط الملكي في حائل
٢٥٥	الفصل السادس - الرحلة من حائل إلى بريده
٣١٧	الفصل السابع - بريده
٣٧٣	الفصل الثامن - من بريده إلى الرياض
٤٤٧	الفصل التاسع - الرياض

الخرائط والمخططات

٥٣٤	خريطة الجزيرة العربية
٥٣٥	مخطط حائل
٥٣٦	مخطط الرياض

مقدمة الترجمة

كتاب كتبه مؤلفه منذ ما يزيد على مائة وثلاثين عاماً ، ويتناول فترة زمنية مراجعها السياسية نادرة جداً وغير دقيقة ، وإذا كان بوكو Pocoke الفرنسي ، وبركخاردت Burckhardt ونيبور الألمانين قد كتبوا عن هذه المنطقة من الناحية الجغرافية أو الطبوغرافية فقط ، بحكم أن ما كتبوه كان على مرأى ومسمع من السلطات التي كانت تقوم على أمر تلك المنطقة في ذلك الوقت ، فإن كتاب "وسط الجزيرة العربية وشرقها" يتناول الجانب الديموغرافي والأنثروبولوجي الذي غاب عن هؤلاء المؤلفين .

ومؤلف هذا الكتاب إنجليزي دماً ولحماً ، أعد نفسه لموضوع هذا الكتاب إعداداً جيداً ؛ فقد درس العربية إلى أن كادت تكون لغته الأم ، فضلاً عن إجادته للغات الفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، وكذلك اللغة اللاتينية ، ومعرفته أيضاً للغة اليونانية القديمة ، كما درس أيضاً مقررأ في طب المناطق الحارة .

وفي بداية الأمر وصل هذا المؤلف إلى مدينة مُعَـان في العام ١٨٦٢ الميلادي ، واستأجر سورياً أسماه بركات في حين أطلق هو على نفسه اسم : سليمان العيص ، واتفقا على أن يتنكرا في زى طبيب عربي ومساعدته .

وينطلق ذلك الطبيب العربي المستعار ومعه مساعدته من مدينة مُعَـان إلى مدينة الجوف ، ويكسب ود حاكمها الذي فشل في اكتشاف شخصية ذلك الطبيب الحقيقية ، ويعد أن يكسب ثقة حاكم الجوف ، يتوسط الأخير له عند حاكم حائل ، الذي فشل بدوره في تعرف شخصية هذا الطبيب الحقيقية ، ويمكث ذلك المؤلف فترة في حائل دون خلالها ملاحظاته - مثلما فعل في الجوف - عن كل شاردة وواردة ، ثم ينطلق من حائل إلى بريده التي شاهد فيها المعركة التي شنّها محمد بن فيصل على عنيزة لإخضاعها والاستيلاء عليها ، ومن بريده ينتقل إلى الرياض التي فشل أهلها أيضاً في اكتشاف شخصيته الحقيقية ، برغم أنهم ناقشوه ، من منطلق "الوهابية" في الإسلام بصفة عامة ،

والكباير بصفة خاصة ، وأثبت لهم أنه ضليع في الدين ، وحاولوا اكتشافه عن طريق التحدث إليه بالإنجليزية ولكنهم فشلوا في ذلك أيضاً ، ونجح في استمالتهم إليه وتسخيرهم لأغراضه فيما يتعلق باستخلاص المعلومات والحصول عليها .

وبحكم أنه كان طبيباً ، ولندرة الأطباء في تلك المنطقة في ذلك الوقت أصبح مقرباً إلى الصفوة ودوائر صنع القرار ، بل إنه كان من المقربين إلى أفراد البلاط الملكي ، مما جعله قريباً من الأحداث ، ويقضى بالجريف في الرياض فترة من الزمن تصل إلى قرابة الخمسين يوماً ، ينتقل بعدها إلى الأحساء دون أن يُكتشف أمره ، ومن الأحساء ينتقل إلى البحرين ، ومن البحرين إلى قطر حيث يزور رأس ريكان ، والبداع ، ويزور الدوحة ، ووقرة ؛ ويتكلم عن بدو المناصير وينو ياس ، ويغادر قطر إلى بر فارس على سفينة فارسية ، ويتحدث عن صخور هلول وينزل في شارك ، ثم يبحر إلى لينجا ومنها إلى سواحل عمان ، حيث يزور الشارقة وخورها وميناءها ، ثم يصل بحراً من السويق إلى صوحار ، ويزور رأس الخيمة وساحل الجبل ، وءوس الجبال ، وشاعام ، وخبب ، ويصل إلى رأس مستندم ويرى صخور سلامة ، ويزور هرمز ، ويزور روبه ، وليمة ومينائها ، ويزور قلحاط (قلحوط) وقطاع اللحى ، وباطنة ، والفجيرة ، وشيناز ، وفرقصة ، ثم يصل إلى مسقط ، والظاهرة ، والجبل الأخضر .

ويغادر مسقط إلى بندر عباس ، وشيرو ، وأبو شهر ثم إلى البصرة ، ومنها إلى بغداد في العراق ، ثم يعود إلى سوريا لينطلق منها في النهاية إلى بريطانيا .

وتستمر رحلة هذا المغامر عاماً كاملاً ، يجمع خلاله مادة علمية أصيلة ، من أفواه الناس ، ومن ملاحظاته الشخصية ، ليكتب كتاباً في مجلدين إجمالي صفحتاهما حوالي ألف ومائتي صفحة من القطع الكبير .

وعلى الصعيد اللغوي يندرج الكتاب ضمن الأدب الراقى ، ودقة مؤلفه في اختيار ألفاظه ومصطلحاته تغيب قارئ النص الإنجليزي ، وتفصيل الكتاب كثيرة وتشهد الانتباه وتوحى بغزارة مادته .

بقي أن أقول : إن نص الكتاب لم يكن سهلاً ، فقد استغرقت ترجمته حوالي العام ونصف العام ، رجعت خلالها إلى الكثير من المراجع والمصادر ، فضلاً عن الاستشارة بأراء كثير من أساتذة الجامعة الزملاء المتخصصين في الجغرافيا ، وفي اللغة الإيطالية ، وأخص منهم الأستاذ الدكتور / سلامة محمد سليمان ، الذي لا أنكر فضله في ترجمة

الآبيات التي اقتبسها المؤلف عن "الكوميديا المقدسة" التي ألفها دانتي الشاعر الإيطالي الفحل ، كما استعنت أيضاً بأساتذة قسم اللغات القديمة بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، فى ترجمة مصطلح أو اثنين وردا باللغة اليونانية القديمة ، وترجمة بعض التعبيرات اللاتينية أيضاً ، أما عن الآبيات التي أخذها المؤلف عن جيته الشاعر الألماني العظيم فلم تستقر ترجمتها لدى إلا بعد أن راجعت أساتذة هذه اللغة ، ثم فى النهاية السفير الألماني فى القاهرة .

وعلى صعيد إعداد الكتاب للنشر فقد أنهى الأستاذ الدكتور / حلمى عبد المنعم - وكيل كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف - قراءة مخطوطة ترجمة المجلد الأول وأعد الهوامش الخاصة بالرد على القضايا الشرعية فى الكتاب .

وفيما يتعلق بالأسماء ، لم يترك المؤلف مجالاً لأى اجتهاد وبخاصة فيما يتعلق بأسماء الأماكن فى وسط الجزيرة العربية ، فقد كان يدون الأسماء تنويناً صوتياً حسب سماعه لها ، وأشهر مثال على ذلك هو الاسم (قلحاط) الذى دونه أيضاً على أنه (قلحوط) من منطلق سماعه لهذا الاسم ملفوظاً بتلك الطريقة أيضاً ، ورغم ذلك يؤكد المؤلف فى مقدمة الكتاب أنه لاقى شيئاً من الصعوبة فى الأسماء ، ويتمنى أن يصحح ذلك إن امتد به العمر لإصدار طبعة ثانية من الكتاب ، وهذا لا يعيب الكتاب ، إذ إنه يترك لنا حرية الإبقاء على الاسم كما هو داخل النص ، على أن نضيف هامشاً بالتصحيح المطلوب وذلك توكيلاً لمبادئ الأمانة العلمية وأصول التحقيق العلمى الدقيق ، زد على ذلك أن تناول المؤلف لأسماء الأماكن وبخاصة فى وسط الجزيرة العربية ، كان رائعاً ، مما جعلنى أشرع فى كتابة بحث عن الأسماء التى وردت فى المجلدين ، على أمل أن أنتهى منه وأنشره بعد نشر الكتاب .

ولم يغب عن بال بالجريف - وهو على طريق توخى الدقة والإمعان فيها - أن يورد ضمن الكتاب عدداً من الكرويكات التى حدد فيها مواقع بعينها ، قام هو بزيارتها ، أو أقام فيها ، فضلاً عن خريطة وقع عليها خط سير رحلته ، وأبى أن يضيفها إلى الكتاب إلا بعد أن عرضها على الجمعية الجغرافية الألمانية ، التى شهدت بدقتها ودقه تفاصيلها .

واستكمالاً لأمانة التحقيق العلمى الدقيق ، نحن نرحب بالتعليق على الأحداث السياسية فى الكتاب ، مع تحديد مواضعها فى النص ، أسوة بما فعلته كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف ، وأن تكون تلك التعليقات موقعه من أصحابها الذين نفضل أن يكونوا من بين الشخصيات المشهود لها بالعلم .

والكتاب جرىء سياسياً ، ويحتاج لناشر جرىء أيضاً ؛ لأنه يتعرض لكثير من الأمور السياسية الحساسة التي لا يعرف كثير من المثقفين وصنّاع القرار حقائقها الأصلية ، كما يتعرض للدور المصرى فى التعامل مع "الوهابيين" فى تلك المنطقة ، ويكشف عن كثير من حقائق المطبخ السياسى فى ذلك الوقت .

ويسعدنى أن أورد هنا أيضاً أن هناك مؤلفاً عاصر بالجريف مؤلف هذا الكتاب ، وشاركه فى جزء من رحلته ، ووضع كتاباً آخر ما زلت أبحث عنه ، وأتمنى أن أعثر عليه ، وعندها سيكون لكل حادث حديث .

وإن قدر لهذا الكتاب أن يرى النور مترجماً ومنشوراً بطريقة لائقة تناسب أهميته ، فإنه سيثير الكثير من الجدل السياسى والعلمى ، وسوف يصحح كثيراً من المفاهيم المغلوطة ، ولا أبالغ إن قلت : إنه سيكون من الكتب الرائجة التى تشكل إضافة حقيقية إلى المكتبة الخليجية بصفة خاصة ، والمكتبة العربية بصفة عامة .

صبرى محمد حسن

مقدمة

هذه الرحلة التي قمت بها إلى كل من وسط الجزيرة العربية وشرقها ، مستهدفاً بها الاستكشاف والملاحظة وليس النشر ، هيأت لى الحصول على قدر كبير من تفاصيل هاتين المنطقتين ، التي تستحق التسجيل والتدوين ، وأنا أعترف أن ظروف زيارتي لهاتين المنطقتين ، وكذلك القيود التي لازمت تنكُّري الوطني ، هما اللذان حالاً بيني وبين القيام بالبحث الأثري والاستقصاء الجيولوجي والنباتي ، كما حرمانى أيضاً من استعمال الوسائل اللازمة للتحري العلمي الدقيق ؛ من ذلك - على سبيل المثال - الأدوات المعتادة اللازمة لمعرفة خطوط الطول ودوائر العرض ، والأدوات اللازمة لقياس درجة الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ، والأسوأ من هذا كله أنني - في بعض الأحيان - لم أكن أستطيع تدوين ملاحظة واحدة ، أو الاحتفاظ بكراسة من كراسات المخططات أو حتى آلة من آلات التصوير ، برغم جمال المناظر الطبيعية وسطوع الشمس ؛ ومن هنا اعتمدت على قلّمي فقط في القيام بدور القلم ودور الرسام (قلم الرصاص) ، في حين سيكون خيال القارئ قادراً على الوفاء بما يتبقى بعد ذلك ، وسوف أتناول في القصة الأسباب التي دعت إلى كل ذلك ، وعلى الجانب الآخر ، فإن السنوات الطوال - أحلى سنوات عمرى في الواقع - التي أمضيتها في الشرق ، وإتقانى للغة العربية إلى أن أصبحت لغتى الأم ، فضلاً عن معرفتى بأخلاقيات وسلوكيات الشعوب "السامية" ، إن جاز لى أن أستعمل الاسم الرمزي لهذه الشعوب ، كل هذه الأشياء أعطتني مزايا تزيد بكثير على العيوب التي سبق أن ذكرتها ، يضاف إلى ذلك أن سكان هذه الأرض ، وليسست أرض هؤلاء السكان كانوا هم الهدف الرئيسي لهذه الدراسة وهذا البحث ، لقد كان اهتمامى منصباً أصلاً على الأحوال الأخلاقية ، والظروف الفكرية والسياسية لسكان هذه البلاد ، ذات الأهمية الكبيرة ، ولكنها ليست لها هذه الأهمية عندي ، أما فيما يتعلق بالملاحظات التي أوردتها عن العصور القديمة ، وعن العلم ، وكذلك الملاحظات التي أوردتها عن النباتات والأحجار ، وعن الجغرافيا والأرصاد ، فأنا أعترف بأنها ليست على ما يرام .

وقد نونت الحروف العربية ، بالحروف الإنجليزية ، مستعملاً فى ذلك الطريقة التى استعملها لين Lane فى كتابه الجميل المعنون "المصريون المحدثون" باعتبار أن ذلك الشكل من التدوين هو الشكل المفهوم من القراء الإنجليز ، وأنا عندما نونت الجيم التى تأتى فى بداية الكلام باستعمال Dd بدلا من d (التى استعملتها فى تدوين الجيم عندما تجيء فى وسط الكلمة أو فى نهايتها) ، أكون قد خالفت أبناء بلدى فى طريقة التدوين المتعارف عليها ؛ كما وجدت أنه ليس من الضروري أن أنبر الصوائت ، واكتفيت فى ذلك بوضع (-) لتدل على أن الصائت طويل أو منبور ، وذلك فى المواقع التى تتطلب مثل هذه العلامة ، وقد تكون هناك بعض الأخطاء ، أو بعض الشواذ على أقل تقدير ، التى استرعت انتباه المصححين والمراجعين فى الطبعة الأولى ؛ وأنا أعتقد أن الطبعة الثانية ، سوف يجرى فيها تحاشى هذه الأخطاء وتلك الشواذ ، والخرائط التى ألحقها بهذا الكتاب رغم أنها ليست دقيقة تماماً إلا أنها توضح ، إلى حد ما ، السمات الرئيسة وكذلك التقسيمات الرئيسة للمناطق الرئيسة ، والمدن والبلاد كلها بصفة عامة .

والقارئ ، ربما يود أن يعرف الهدف المخصص لهذه الرحلة والظروف الحاكمة لها ، لقد كان يحدونى أمل كبير فى الإسهام فى شىء من أجل الصالح الاجتماعى لهذه المناطق الشاسعة ؛ كان يحدونى أمل تحريك مياه الحياة الشرقية الراكدة حتى تلحق بأنهار التقدم الأوربى الجارية وتتصل بها ؛ وربما لدى أيضاً دافع لتعرف ذلك الذى كنت أجهله حتى ذلك الحين ، وكذلك الرغبة فى الاستكشاف التى تملا قلوب الإنجليز ؛ كانت تلك هى الدوافع الأساسية ، ويمكن لى بصفتى المؤلف ، أن أضيف إلى ذلك ، أننى كنت منضماً فى ذلك الوقت إلى الجمعية اليسوعية ، تلك الجمعية التى اشتهرت فى حوليات التاريخ بأعمالها التى تستهدف حب البشر والناس ؛ ويجب أيضاً أن أعتز ، بصفتى المؤلف ، بخالص شكرى لامبراطور فرنسا الحالى ، على كرمه فى توفير المخصصات النقدية اللازمة لهذه الرحلة .

ومن الأهمية بمكان أن تكون لدينا فكرة صحيحة عن الشعوب والأمم التى يغلب على الظروف أن تجعلنا أكثر اتصالاً بها ، وكذلك الشعوب التى يحتمل أن نكون نحن فى المستقبل ، متحكِّمين بفضل العناية الإلهية ، فى كثير من أمورها المستقبلية ، ويؤسفنى أن أقول : أن هذه الأفكار تبدو مشوهة ومبالغ فيها ، فى كثير من الأحيان ،

ومع ذلك فهي تمثل الأفكار السائدة في الغرب عن أهل الشرق ، ويمكن أن نرد هذه الأفكار إلى الملاحظة غير الدقيقة ، وربما أيضاً إلى تعمد الإساءة ؛ كما يمكن أن نردها أيضاً إلى الرُّحالة ، الذين يبلغ انشغالهم بأفكارهم وتخيلاتهم حداً ، يحول بينهم وبين فهم الأطوار العقلية والسلوكية التي تسود بين شعوب غير شعوبهم ؛ هذا في الوقت الذي ربما يكون الخيال الجامح قد سلط فيه ضوءاً باهراً على أضواء الشرق الخافتة ، لقد كان هدفى الرئيسى من هذه الدراسة ، هو إعطاء فكرة صحيحة ، إلى حد بعيد ، عن العرق العربى ، وعن حالة هذه العرق الفكرية والسياسية ، والاجتماعية والدينية ؛ على النحو الذى رأيته أنا شخصياً ، ولو يسعدنى الحظ بتحقيق ذلك ، فلن أنطلع إلى أكثر منه ، إن الكثير من هذا الكتاب لن يفيد منه فقط الأمم والشعوب والقبائل التى تسكن شبه الجزيرة العربية ، وإنما سيساعد أيضاً على فهم كثير من بلدان وشعوب الشرق ؛ سيساعد على فهم كل من مصر ، وسوريا ، وبلاد الرافدين ، بل فهم الأناضول ، وكوردستان ، وبلاد فارس ، نظراً لأن كل هذه البلاد عدت الكثير من أمورها بفضل تأثير العرب عليها ، ويفضل اختلاط العرب بها واستعمارهم لها . ومن هنا ، فإن الفهم الواضح لأسباب الازدهار والتدهور فى الجزيرة العربية وداخل حدودها المستقلة ، قد يساعد مساعدة كبيرة فى حل كثير من الألغاز داخل أطوار مناطق الامبراطورية العثمانية التى تجاور الجزيرة العربية ، كما قد يساعد أيضاً على حل ألغاز الحكومات الآسيوية الأخرى . زد على ذلك ، أننى سوف أركز بصورة خاصة ، على التطبيق العملى ، والنتائج التى ترتبت على تلك الظاهرة العجيبة من ظواهر الذهن البشرى ، أو أن شئت فقل العقيدة الحمديّة^(١) ، أو بالأحرى الإسلام ؛ وأنا أود أن أضع هذه النقطة بصفة خاصة أمام أعين هؤلاء - فى الشرق أو الغرب على حد سواء - الذين يودون أن يعربوا عن إيمانهم بالنبى وإعجابهم به وبرسالته .

وفيما يتعلق بصحة الحقائق والأحكام التى تتعلق بماضى الجزيرة العربية وحاضرها ، والتى أوردتها فى هذا الكتاب ، قد يكون من المفيد أن أشير إلى أننى كنت أمين ، على طول الخط ، بين ما شاهدته حقيقة أو تأكدت منه عن طريق التحرى الفعلى ، وبين ذلك الذى استخلصته أو استنتجته ، وذلك الذى جمعته على شكل روايات من أفواه

(١) ليس فى الإسلام ما يعرف بالعقيدة الحمديّة وإنما العقيدة فى الإسلام تنسب إلى الله فيقال العقيدة الإلهية (د. حلمى عبد المنعم) .

مواطنى هذه البلاد ، وهذا بدوره يجعلنى أقسم مادة الكتاب إلى ثلاث مستويات ، أزعج أن المستوى الأول منها يصل إلى مستوى التأكيد واليقين ، أى أنه يرقى إلى المستوى الإنجليزى الذى يقول المرء فيه : "لقد شاهدت" أو "لقد سمعت" ، وأنا أضع القسم الثانى تحت تصرف القارئ لينقده ويقول رأيه فيه ، ثقة منى أن السنوات التى أمضيتها فى الدراسات الشرقية، وفى الملاحظة ، وفى المقابلات ، سوف تصحح الحكم، عندما ينصرف ، ليكون فى صالحى ؛ وأنا بدورى لا أريد أن أفرض نظرياتى واستنتاجاتى على أولئك الذين قد يكون لديهم من الأسباب ، ما يجعلهم يشكّون فى صحة هذه النظريات أو تلك الاستنتاجات ، وفيما يتعلق بالجزء الثالث ، أى الجزء الخاص بالروايات المسموعة ، فأنا أتركه لرأى القارئ وتقويمه ، ليقول فيه ما يشاء . والشئ الوحيد الذى أريد أن أركز عليه هنا ، وأنا أنقل عن مصادر من هذا القبيل ، هو التأكد إن كانت تلك المصادر من مواطنى البلدان التى يصفونها أو جيران لها على أقل تقدير ، وهل شهدت هذه المصادر تلك الأحداث التى حكّت لى عنها ، أم أنها كانت غير هذا وذاك ، وقد وجدت ، من الصعب ، أن أدون أسماء هؤلاء الأشخاص ، وألقابهم ، حتى لا أملا صفحاتى بقوائم طويلة من قبيل محمد ، وحسن ، وعلى ، وهو تكرار يشبه إلى حد بعيد ، ما يحدث فى إنجلترا عندما نكرر الأسماء التى من قبيل توماس ، جون ، أو وليام .

وينبغى أن أشير هنا أن مسألة عمل حواشى ، فى نهاية كل صفحة ، أشير فيها إلى أسماء المؤلفين الشرقيين ، لن تقدم أو تؤخر وإذا ما أراد أى مستشرق أن يتعرف هؤلاء المؤلفين ، فأنا أذكر من بينهم أعمال كبار المؤلفين الذين يمكنه الرجوع إليهم إذا ما سنحت له الفرصة وتوفر له الوقت ومن أشهر المؤلفين الذين رجعت إليهم^(١) : حماسة أبو تمام ، معلقات امرؤ القيس ، المقرئى ، شمس الدين الدمشقى ، ابن خلّكان ، ابن خلدون ، الحريرى ، المقرئى ، أمثال الميدانى ، ألف ليلة وليلة ، (الكتاب الذى فيه من المغزى أكثر مما تسمعه الأذن) ؛ قصة عنتره ، وأبو زيد ، وبنو هلال ، والوزير الشجاع ، وقصائد أو "ديوان" عمرو بن كلثوم ، وقصائد جرير ، وديوان الأخطل ،

(١) ينبغى مراعاة ذكر المؤلفين أولاً أو ذكر الكتب أولاً ثم المؤلف . وقد أشار الكاتب فى بدء عبارته بأنه يذكر أشهر المؤلفين لكنه خلط فذكر الكتاب ثم مؤلفه ، وأحياناً يذكر المؤلف فقط ، وأحياناً يذكر الكتاب فقط ، وهذا خلط علمى .

والفرزدق ، والمغربي ، والمتنبى ، وابن الفارض ، وأبو العلاء ، والناطوسى ، وديوان حذيل ؛ علاوة على تفسير القرآن لكل من البيضاوى ، والزمخشري ، وجلال الدين ، وآخرين ، كما رجعت أيضاً لكتابات الغزالي الصوفية ، الكبريت الأحمر ، الأنوار القدسية ، ومقالات محي الدين ، وآخرون ، من أولئك الذين لم يصلنا من أعمالهم سوى قصاصات صغيرة ؛ كما رجعت أيضاً لكثير من المخطوطات مجهولة المؤلفين التي تتناول الجانب التاريخي والجانب الأخلاقي ، وكنت قد حصلت على تلك المخطوطات من بعض معارفى فى كل من سوريا ومصر ، ولكن معظم هذه المخطوطات قد أحرقت أو دمرت بفعل أصدقائى الدروز عندما أحرقوا زحله ومعها منزلى أيضاً فى العام ١٨٦٠ الميلادى ، وأنا هنا أحيل القارئ الكريم ، إلى هذه المصادر ، كيما يتأكد بنفسه من الإشارات والحقائق التي أوردتها فى هذا الكتاب ، أو النظريات التي جمعتها من كتب هؤلاء المؤلفين .

أما فيما يتعلق بالمراجع الأوربية الخاصة ببلاد الشرق ، وعن الترحال فى الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها ، فلم أقرأ سوى القليل منها ، وهذا لا يرجع إلى عدم رغبتى فى ذلك ، وإنما لضيق وقتى ، وقد أغرائى أسلوب نيبور البارد والعذب والمحاذ إلى دراسة رحلته التي قام بها إلى الجزيرة العربية ؛ ولقد أعجبتنى كثيراً صراحة هذا الرجل وصدقه ، فضلاً عن ملاحظاته الدقيقة والفاحصة ، ولقد وجدت أن هذا الرجل الفذ قد جانبه الصواب فى بعض المسائل الطفيفة ، وقد اكتشفت ذلك ، أثناء قيامى برحلتى ، مع احترامى الشديد لهذا الألمانى الفذ ، وكنت أترك القارئ الحكم بعد أن أضع أمامه العبارتين المتناقضتين .

وبعد أن عدت إلى بلدى ، وضعت أمامى وتحت تصرفى مذكرات الكابتن ولستد WELSTED ومذكرات السيد/ والين WALLIN ، باعتبارها من منشورات الجمعية الجغرافية الملكية ، وقد اكتشفت أن رحلتى ، تؤيد دقة هذه المذكرات ، والفارق بينى وبين هذين الرجلين أن أبحاثهما كانت أبحاثاً طبوغرافية فى الأساس ، إذ لم تلق أبحاث هذين الرجلين بالآ يذكر للظروف السكانية فى هذه البلاد ، وأنا برحلتى أسد ذلك الفراغ فى أبحاث هذين الرجلين .

وفىما يتعلق برحلات كل من بوكوك POCOKE ، وبركخاردت BURCKHARDT ، وآخرين فأنا ليس لدى ما يمكننى من تأييدها أو رفضها ، ويبدو لى أن رحلة بركخاردت فيها شيء من المبالغة ، وهذا أمر شائع فى مؤلفين كثيرين آخرين ، وذلك قيما يتعلق بالبدو وحياة البدو ؛ وربما نجد فى كتاب بركخاردت ، أيضاً ، شيئاً من

عدم الوضوح وعدم الدقة فى الصور التى رسمها بركخاردت للحياة الاجتماعية ، بل هناك عدم وضوح وعدم دقة أيضاً فى إحصائياته ، وأنا أرى قلة قليلة من المؤلفين هى التى استطاعت تقييم السكان الجائلين ، فى الجزيرة العربية ، تقييماً عادلاً وحقيقياً ، كما أن فئة من المؤلفين ، أقل من هذه الفئة القليلة ، هى التى استطاعت أيضاً تقييم السكان المقيمين من سكان الجزيرة العربية ، تقييماً عادلاً ؛ وأن عدداً من المؤلفين ، يعد على أصابع اليد الواحدة ، هم الذين فهموا الطريقة التى يعمل بها النظام العشائرى (القبلى) بين السكان المترحلين والسكان المقيمين ، وفى الأماكن التى تكمن فيها القوة والأماكن التى يكمن فيها الضعف ، ومحصلة هذا الفهم النهائية غامضة وغير واضحة ، إضافة إلى التفاصيل المفككة تعد ناقصة وغير كافية ؛ ولكن إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا الصعوبات التى اعترضت طريقهم ، فإننا يجب أن نمتدحهم ونثنى عليهم ، بدلاً من انتقادهم على ما فاتهم .

وإذا كنت قد استقيت من الجيل الماضى شيئاً من العون والمساعدة ، فإن ذلك كان بفضل أصدقائى الأحياء أصحاب المعرفة الواسعة والمكتسبات الشرقية الكثيرة التى مكنتهم من أن يكونوا خير عون لى فى الزيادة والحذف والتعديل ، بل الحصول على بعض المعلومات ، وأنا أتوجه بالشكر إلى الأستاذ روجير فى برلين ، وإلى السيد / ستانلى بول ، فى لندن ، لأنهما هما اللذان وضعانى على هذا الطريق فى ظل التزامات واقعية ودائمة ؛ وأنا يسعدنى أن أذكر اسميهما ، لا لاستبعاد الأصدقاء الآخرين ، وإنما ليكونا مجرد رمز إلى قائمة طويلة من الأصدقاء وأصحاب الفضل ، هما يقفان على رأسها ، وخريطة الجزيرة العربية ، الدقيقة والعامرة بالتفاصيل التى ألحقتها بهذا الكتاب راجعها الأستاذ / كايبيرت البرلينى ، بدقته وعلمه المعهودين فيه ؛ يضاف إلى ذلك أن الجمعيتين الجغرافيتين فى كل من لندن وبرلين ، ممثلتين فى رئيسيهما : السير/روديرك Roderick مورشيزون Murchison والأستاذ/بارت Barth ، قد قدمتا لى كثيراً من العون والمساعدة ، وخلاصة القول أن العاصمة الإنجليزية وعاصمة شمالى ألمانيا ، قدمتا لى كل ما يمكن أن يكون تعاوناً معى ومساندة لى . وبالتالي أن كان هناك أى تقصير ، فى هذا العمل الذى أضعه أمام القارئ ، فذلك مرده لى أنا شخصياً ، برغم إنى بذلت قصارى جهدى لتقليل هذه الأخطاء إلى أقل حد ممكن ، ولكن أتمنى أن يكون القارئ على استعداد الآن لمرافقتى أثناء رحلتى ، ومن ثم ، وبدون أية مقدمات هيا بنا نركب جمالنا ونرحل .

الترحال والإقامة

فى

وسط وشرقى الجزيرة العربية

الفصل الأول

الصحراء وسكانها

ولكنى أرى أن الهمجى الكئيب أقل من الطفل المسيحى .

ألفريد تينيسون

الرحيل عن مُعَان - رفاقنا البدو - المتاع والتنكر ؛ أسباب التنكر ونوعه الأحداث التى وقعت فى مُعَان - عبادة البدو للشمس - ملاحظات عن دين البدو وأخلاقهم - آبار وقُباء - خمسة أيام فى الصحراء الشرقية - طريقة الترحال - الأخبار الأولى عن طلال بن الرشيد - الآبار - الوصول إلى وادى السُرحان - مُخيم الشرارات - كرم البدو وأحاديثهم : - ظروفهم الاجتماعية - السُحُح والمصاع - نفوذ حكومة طلال على البدو - الطُرف والنوادر - الحروب - نظرة عامة على التكوين الأول للجنسية العربية ، تقسيم هذه الجنسية إلى عرب عاربة وعرب مستعربة ، قيمة كل منهما - طريق وادى السرحان : الكتبان الرملية والغاضة - ملاحظات على الجِمال - شرارة عزّام فى المعجوع - تغيير المرشدين - الطريق إلى الجوف : النعام ، العقارب - جبل الجوف : قرية جُون - أول لقاء مع رجال الجوف - مداخل الوادى .

"هيا بنا نحاول ، بشكل نهائى وقاطع ، أن نتعرف الجزيرة العربية تعرفاً كاملاً وشاملاً ، بعد أن تعرفنا سواحلها إلى حد كبير ؛ فقد استُكشِفَ بالفعل كثير من مناطقها البحرية استكشافاً كافياً إن لم يكن كاملاً ؛ ولم يعد اليمن أو الحجاز أو مكة أو المدينة ألقاً بالنسبة لنا ، فضلاً عما لدينا من معلومات أيضاً عن منطقتي حضرموت وعمّان ؛ ولكن هل ما نعرفه بحق من خلال الروايات والأوصاف ،

عن المناطق الداخلية من الجزيرة العربية ، وعن سهولها وجبالها ، وقبائلها ومدنها ، وعن حكوماتها ومؤسساتها ، وعن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم ، وعن ظروفهم الاجتماعية ، ومدى تقدمهم الحضارى أو مدى تخلفهم ، هل ما نعرفه الآن يجنبنا مخاطر الروايات والأوصاف التى تفتقر إلى الدقة والكمال ؟ وهل ردم هذه الفجوة ، التى سنحاول ردمها فى خريطة أسيا برغم المخاطر التى قد تترتب على ذلك ؛ ستجعل الأرض التى أمامنا مقبرة لنا ، أم سنغيرها من أقصاها إلى أقصاها ونعرف كل ما تحتوى عليه ؟ "لا تراجع إلى الوراء" .

كانت هذه ، أو هكذا كانت ، الخواطر التى دارت بخلقى ، وبخلد رفيقى تقريباً ، عندما وجدنا نفسيينا مع حلول الليل خارج البوابة الشرقية فى مدينة مُعَان ، بينما راح كل من العرب الذين سيرشدوننا هم والعرب الراحلين الآخرين يملأون قرب المياه من مصدر الماء الذى ينبثق من خارج أسوار البلدة مباشرة ، ويعدلون سروج وأحمال جمالهم ، استعداداً للرحلة الطويلة التى تنتظرنا وتنتظرهم ، حدث ذلك ، فى مساء اليوم السادس عشر من شهر يونيو من العام ١٨٦٢ الميلادى ؛ وكنا نرى النجوم الكبيرة وهى تتلألأ فى أعماق السماء الزرقاء السحيقة الخالية من السحب ، فى حين كان الهلال ساطعاً ، ناحية الغرب ، كما هى عادته فى سماء تلك المناطق ، مما بعث فينا أمل مساعدته لنا لوضع ساعات فى مسيرتنا أثناء الليل ، وسرعان ما ركبنا حيواناتنا الهزيلة طويلة الأعناق ، وغدونا كما يقول الشاعر العربى "كما لو كنا على قمة السوارى" ، ويممنا المسير ناحية الشرق ، وتراعت لنا من خلفنا قلعة معان وأسوارها كما لو كانت كتلة من الظلام محدودة المعالم الخارجية هى ومنازلها وحدائقها ، ومن ورائها عن بعد سلسلة جبال شرع SHERA'A المتصلة بسلسلة جبال الحجاز الساحلية ، ومن الأمام وعلى الجانبين كان يمتد سهل واسع ومستو ، اصطبغ باللون الأسود بفعل حصى البازلت وحصى الصوان الذى لا يحصى ولا يعد ، اللهم باستثناء تلك البقع الرملية التى كانت تتخلل ذلك الحصى وتتلألأ عليها أشعة القمر البيضاء ، أو تلك الأشعة الضئيلة الضاربة إلى الاصفرار التى كانت تعكسها الأعشاب الذابلة الزاوية ، التى أنتجت أقطار الشتاء القليلة ، ثم تحولت الآن إلى هشيم جاف ، يضاف إلى ذلك كله ، ذلك الصمت الرهيب الذى كان رفاقنا العرب يخشون أن يكسروه ؛ فقد كانوا لا يتكلمون إلا همساً ، وبأقل الكلمات ، فى حين كان وقع أقدام الجمال يسرع الخطى خلسة خلال الظلام ، دون أن يفسد سكونه .

وكنا قد اتخذنا بالفعل بعض الاحتياطات ، لأن تلك المرحلة من الرحلة التي نحن مقبلون عليها كانت تتسم بالأمان والسلامة ، فقد كنا قاصدين منطقة الجوف ، أقرب المناطق المأهولة في شبه الجزيرة العربية ، إلى بلدة معان ، أو أن شنت فقل كنا قاصدين إلى المحطة الخارجية لوسط الجزيرة العربية ، كانت المنطقة الممتدة بين معان والجوف ، تمثل في مجملها ، خطراً مزدوجاً يتمثل في اللصوص والظلم من ناحية ، وفي عصابات الغزو والسطو في حر الصيف ، من ناحية ثانية ، في حين كانت المسافة التي سنقطعها في خط مستقيم ، تقدر بحوالى مائتى ميل ، يحتمل أن تطول أكثر من ذلك ، بفعل ظروف خارجة عن إرادتنا ، والسبب في ذلك أن آبار المياه ، تلك العلامات الأرضية التي يهتدى بها الرحالة ، والتي يحددون مساراتهم على أساس منها ، لا تكون منتظمة مثل الخطوط الرياضية المستقيمة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ضرورة تجنب المناطق التي تتردد عليها القبائل المعادية ، أو التي تنور من حولها الشكوك ، هي التي تضطر البدوى إلى أن يتخذ لنفسه مساراً دورانياً غير المسارات المعتادة .

زد على ذلك ، أن المجتمع الذي كنا فيه بالفعل ، لم تكن طبيعته تبعث الاطمئنان في القلوب ، وبخاصة مع مطلع رحلة من هذا القبيل ، وفيما يتعلق برفيقي ، وهو بحق - واحد من أبناء قرية زحلة في سوريا - فأنا أثق به وأعتمد عليه ، فهو قوى ، وشاب ، ومقدام ، وهو من أبناء منطقة ، تعود سكانها على الأخطار ، في حين أن الدونية التي ينظرون بها إلى السكان المجاورين لهم تجعلهم أقل تأثراً ، من إخوانهم المواطنين ، بانطباعات الخوف المعتادة التي تنتاب الناس عندما يكونون في أرض غريبة ، ومع ذلك ، فقد كان رفاقنا من البدو يشكلون مجموعة غريبة بحق : فقد كانوا ثلاثة من حيث العدد ؛ وقد كان زعيمهم سليم العطنة من عرب الحويطات ، تلك القبيلة كبيرة العدد ، النشطة التي تسكن المنطقة الجبلية الممتدة من كيراك KERAK على شاطئ البحر الميت إلى معان . بل أن رفيقنا نفسه كان فرداً من أفراد إحدى العائلات القوية في تلك القبيلة ؛ فضلاً عن كونه أيضاً أحد أقرب الأقارب إلى رؤساء العشيرة ؛ غير أنه خرب سمعته وأثار الشكوك من حولها بسبب ارتكابه حوادث السرقة والسلب والنهب مراراً وتكراراً ، إضافة إلى ارتكاب حوادث القتل من حين لآخر ، إلى أن أصبحت سمعته الحالية لا تزيد عن كونه مجرمًا وخارجاً على القانون ، فقد كانت بنيته الضامرة وملامحه الداكنة وشفتاه المكتنزتان تعطى انطباعاً بالحزم والجرأة ، في حين كانت عيناه الرماديتان توحيان بالبرودة والتأمل ، اللذين لا يخلوان من احتمال الخيانة .

وأنا أزيد على ذلك هنا ، أن الصورة الحلوة التي يرسمها الرحالة من حين لآخر ، لطهارة القصد البدوي وعفته لا تتفق في جميع الأحوال مع الوقائع الحقيقية التي قد يتمناها المرء ، وعلى العكس من ذلك ، نجد أن أعمال الخيانة التي يأتيها أصحاب الدم البارد لا تشيع أو تنتشر بين هؤلاء البدو الرحل : إذ نجد أن الغرياء الذين يحظون بحمايتهم وإرشادهم ، بل حتى إخوانهم المقربين إليهم في الصحراء ، يكونون في أحيان كثيرة ضحايا لمثل هذه الأعمال ، ومسألة تضليل الرحالة ليسيروا على غير هدى في البدياء إلى أن يصيبهم الإعياء بسبب الظمأ والإرهاق ، وسلب ونهب ما معهم ثم تركهم يموتون في الصحراء ، مسألة بدوية تحدث مراراً وتكراراً ؛ كما أن الأمثلة على ذلك أكثر من أن نعزوها إلى مجرد المصادفة أو نعدّها من قبيل الاستثناء ، وعلى ذلك ، فإن قافلة كثيرة العدد ، كانت تتكون في معظمها من الأثرياء اليهود ، وهم في طريقهم من دمشق إلى بغداد ، ضيّعها البدو المرشدون وضلّوها ؛ وهلك الرحالة إلى آخر رجل ، بينما راح مرشدوهم الذين خلت قلوبهم من الأيمان ، يراقبونهم من بعيد إلى أن تأكّدوا أن الظمأ والشمس الحارقة قد قاما بعملهم ، ثم عادوا إلى مشهد الموت ونصّبوا أنفسهم أوصياء على بضائع رفاقهم الذين وثقوا بهم ، وعلى أموالهم المنقولة وعلى ثرواتهم ، وقد صادفت ، أنا بنفسى ، أيام أن كنت في حائل ، في وسط الجزيرة العربية ، مؤلفاً عبرياً من الحجم الكبير ، كان ملكاً لواحد من أولئك اليهود التّعساء . وقد أحضر البدوى ذلك المؤلف ، الذى جاء ضمن نصيبه من المنهوبات ، عبر هذه المسافة الطويلة ، أملاً أن يحقق ربحاً من خيانتته عن طريق بيع كتاب قيم من وجهة النظر الشرقية طالما أنه غير مفهوم .

وعلى كل حال ، وفيما يتعلق بـ سليم العطنة ، ومهما كانت العيوب والنقائص التي في مظهره أو التي في تاريخه الشخصى المعروف تماماً ، فإن إحساسه الطيب وطابعه الرجولى كانا يشكلان أرضية مشتركة لثقتنا في إخلاصه وولائه لنا في وضعنا الحالى ؛ فهو رجل شجاع بعيد النظر ، وبغض النظر عن عدم إلزامه بالمبادئ ، يمكن أن نوليه ثقتنا بقدر معلوم ، ومع ذلك يصعب على أن أقول الشيء نفسه عن رفيقيه على وجوردي ، وهما من بدو الشرارات ، وهما مختلفان تماماً من حيث المظهر والمخبر ، وهمجيان ، ومتقلبان ، ومتهوران ، إضافة إلى أن مقدرتهما الفكرية كانت ضئيلة وهزيلة شأنها شأن مكوناتها ، ولحق أقول : إن سليم العطنة نفسه نصحنّا مراراً بتجنب الانفتاح عليهما ، خشية أن يقلل ذلك الانفتاح من الخوف الذى يحسه الرجل غير المتحضر إزاء الرجل المتحضر .

كان زى البدو وتجهيزاتهم للرحلة التى من هذا القبيل عبارة عن : قميص طويل متسخ تماماً ، يصل طوله إلى ما فوق كاحل القدمين ، ومنديل أسود من القطن يضعه البدوى فوق رأسه ، ويثبت بحبل مصنوع من وبر الجمال ، ومشعل بال ، مقلم بالأبيض والبنى ، وحزام من الجلد ، ردىء الصنعة ، يتدلى منه سكين علاه الصدا ، وبندقية فتيل مزعجة لها ماسورة طويلة ، ورمح مدبب أطول من البندقية ، وحزام من البارود المكسّر والمصوق إلى بعضه بالخيط ، كان زى سليم العطنة بهذه الأوصاف نفسها ، اللهم باستثناء أن مكونات الزى كانت من نوعية أفضل .

أما أنا ورفيقي فقد كنا نرتدى زى اثنين من الرُحالة ينتميان إلى الطبقة المتوسطة جاءا من المناطق الداخلية من سورية ، وهذا الزى نفسه هو الذى مررنا به من غزه ، على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، إلى بلدة مُعان دون أن يتفحصنا أحد ، أو يستجوبنا أى إنسان من أولئك الذين التقيناهم ، عندما كنا نعبر ذلك البلد الذى أطلق عليه كل من بوكوك POCOKE ، و لابورد LABORDE ، ومن جاوا بعدهما ، اسم ARABIA PETRAEA ، إلى حد أنه ليس من الضروري على أن أورد المزيد من ذلك الوصف ضمن كتابى هذا ، كان الزى الذى كنا نرتديه مكوناً فى بعض أجزائه من قميص خارجي من قماش القنب المصرى ، كنا نلبس من تحته ، وذلك على العكس من رفاقنا من الرُحالة البدو ، سروالا تحتانياً فضفاضاً من القطن الفاخر ، يشيع ارتداؤه فى الشرق ، فى حين كنا نثبت غتره الرأس الملونة بعقال تبدو عليه الأناقة ؛ وجاء الحذاء الجلدى الأحمر الذى يشيع لبسه فى هذه البلاد مكملاً لذلك الزى .

ومع ذلك ، فقد كانت الإخراج التى كانت تتدلى على جوانب الجمال ، تحتوى على أزياء أكثر جمالاً من تلك التى كنا نرتديها ، حرصنا أن نخفيها عن أعين البدو ، انتظاراً للظهور بها عندما نصل إلى المناطق العامرة بالسكان ، والأكثر تحضراً وتقدماً ، كانت تلك الملابس الاحتياطية تشتمل على أشياء من قبيل : القمصان الخارجية الملونة ، والكمباز COMBAZ السوري ، ومناديل مقلمه بالحرير بدلا من القطن ، وأحزمة مصنوعة من قماش جيد وزاهى الألوان ؛ أو بمعنى آخر كل الملابس اللازمة تماماً للحفاظ على تنكرنا ، كنت أرتدى زى طبيب وطنى رُحال ، أو إن شئت فقل طبيياً دجّالاً ؛ ومن هنا كان لابد من ارتداء الزى الذى يصلح لمهنتى الطبية ويناسبها ، أما رفيقى ، الذى كان ينتحل صفة زوج شقيقتى ، فقد كان يمتن تجارة التجزئة ، ويتظاهر بأنه

زار هذه البلاد مراراً ، وفى بعض الأحيان الأخرى كان ينتحل صفة تلميذى أو مساعدى فى مهنة الطب .

كانت المواد الصيدلانية التى نعملها معنا من العقاقير الفاعلة رغم قلة عددها ، وكنا نحتفظ بها فى صناديق صغيرة محكمة الغلق مصنوعة من الصفيح ، ولكنها فى الوقت الراهن ، كانت فى قاع أخراج^(١) الترحال ، وقد بلغ عدد هذه الصناديق حوالى خمسين صندوقاً ، تحتوى على ما يكفى لشفاء ، أو قتل نصف مرضى الجزيرة العربية ، وقد حذفنا ، بقدر المستطاع ، من قائمة أدويتنا تلك الأدوية ذات الطابع السائل ، وكانت أسباب ذلك الحذف لا تتركز فقط فى صعوبة تداول ونقل هذا النوع من الأدوية فى ظل هذا الأسلوب الوعر ، من أساليب الترحال ، وإنما أيضاً بسبب البحر السريع الذى يحدث لهذه الأدوية فى مناخ جاف حارق من هذا النوع ، وللحقيقة أقول أن اثنين أو ثلاثة قوارير من قوارير الأدوية السائلة ، التى كنت أرى أننا سنكون بحاجة ماسة إليها ، سرعان ما تبخرت ولم يتبق فيها أى شىء من الدواء ، اللهم باستثناء البطاقات التى لصقتها عليها توضيحاً لمحتوياتها ؛ لقد تبخرت محتويات تلك القوارير برغم أغطيتها التى لا تسمح بتسرب الهواء ، وبرغم تغليفها لها تغليفاً مزدوجاً ، وأنا أسجل هذا هنا ، من قبيل التذكير النافع لكل امرئ ينوى التنكر فى الزى نفسه ، للقيام بمغامرات من هذا القبيل .

كما اصطحبت معى لاستعمالى الشخصى أيضاً كتابين أو ثلاثة من كتب الطب الأوربية ، الضرورية لممارسة المهنة ، حرصت على إخفائها بعيداً عن فضول العرب ؛ كما اصطحبت معى أيضاً مقالين من مقالات إيسكولاب ESCULAPE مكتوبين بلغة عربية سليمة ، بغية التباهى المهنى من ناحية واستكمالاً لتجهيزاتنا من الناحية الأخرى . كما أخذنا معنا أيضاً ، قدرًا كافيًا من القماش ، والمناديل ، والعقود المصنوعة من الزجاج ، وأطباق الغلايين ، وما إلى ذلك من تلك الأشياء ، لعرضها للبيع فى الأماكن التى لا يروج فيها فن الشفاء من المرض ، وقد ملأنا أخراجنا عن آخرها بالأشياء التى من هذا القبيل ، أخيراً ، وليس بآخر ، حملنا معنا أيضاً جوالين كبيرين من البن ، كان ملاذ تجارتنا الأخير وأملها الرئيسى يشكل حمولة جمل قوى متين .

(١) واحده : خرج وهو ما يوضع على ظهر الحمار أو الجمل وتوضع فيه الأشياء أثناء السفر أو الترحال (المترجم) .

قد يتعجب القارئ من ذلك الشكل المركب من أشكال التنكر ، بل ربما يصفه تحت أى ظرف من الظروف ، بأنه شكل من أشكال المبالغة والتزديد ، غير أن مثل هذه التجهيزات أو الإجراءات التى تكون مساوية لها ، على أقل تقدير ، إذا لم تكن أمراً ضرورياً تماماً ، فهى مفيدة تماماً لأولئك الذين يودون الترحال الآمن فى وسط الجزيرة العربية ؛ أما الأسباب والمسببات الداعية لذلك فسوف أترك لمجريات الأحداث تفسيرها وتوضيحها ، وإذا ما أخذ القارئ العزيز كلامى مأخذ الصديق فإننى أقول : لولا اتخاذنا لهذه الإجراءات وتلك التجهيزات لما تمتع القارئ، تحت أى ظرف من الظروف ، بالقيام بهذه الرحلة العظيمة من خلال هذا الكتاب عن الجزيرة العربية العظيمة ، وهو جالس إلى جوار مدفأته ، بعيداً عن الأخطار التى تَعَيَّن على الرحالة أن يمروا بها والمنغصات التى أصابتهم أثناء قيامهم بهذه الرحلة .

وعلى كل حال ؛ لو قَدَّر لنا ، قبل بداية الرحلة ، أن نعرف الطابع الحقيقى للبلدان التى زرتها ، فلربما استغنينا من ناحية عن جزء كبير من مؤننا وبضائنا ، التى قصدنا بها أصلاً الاتجار مع البدو ، وزدنا ، من الناحية الأخرى مؤننا وإمداداتنا الطبية التى تصلح كثيراً للريف والحضر ، ولكن ، إذا ما افترضنا ، مثل سائر البشر ، أن الجزيرة العربية تكاد تكون مقصورة على البدو الرحل فقط ، وأن عدد السكان المستقرين لا بد وأن يكون صغيراً وغير ذى بال قياساً على عدد سكان البدو ، فذلك يعنى أن الصنف الأول من تجهيزاتنا مهم مثل الصنف الثانى تماماً؛ وهذا خطأ خطير ، سرعان ما تبيناه ، والسبب فى ذلك ، أننا بعد أن أنهينا المرحلة الأولى من رحلتنا ، أصبحت المرحلة الثانية منها التى اجتزنا فيها المناطق الداخلية إلى أن وصلنا تماماً إلى شاطئ الخليج الفارسى والمحيط الهندى ، تمر خلال بلدان لا يمثل البدو فيها شيئاً على الإطلاق ، فى حين ، كان السكان المستقرون بأراضيهم ، ومدنهم ، وزراعتهم ، وحكوماتهم يمثلون كل شيء ، ومع ذلك لا بد لنا أن ندرس كل ذلك ونتعلم منه .

والواقع أن مظهرنا شبه التجارى تسبب لنا فى كثير من المضايقات ، فى حين أن مظهرنا الطبى جنبنا الهزيمة الكاملة ، إذ وقع الحادث على النحو التالى :

معان تلك البلدة التى غادرناها منذ وقت قصير ، عبارة عن بلد صغير أو بالأحرى قرية صغيرة ، تقع على جانبى طريق الحج الذى يمتد من دمشق إلى مكة ، مسافة تقدر بمسير ثلاثة عشر يوماً من ناحية دمشق ، ومسير ستة وعشرين يوماً من ناحية مكة .

وقد ورد وصف هذه البلدة فى الكتاب الذى كتبه السيد/ والين WALLIN عن الرحلة التى قام بها إلى شمالى الجزيرة العربية ، وعندما وصلنا إلى بلدة معان ، قادمين إليها من وادى العقبة ، فى منتصف موسم الحج ، وجدنا حامية تركية صغيرة تحتل البلدة ، ويتمركز فيها طوال أشهر الحج ، لحماية الطريق وتأمينه ، فى حين كان سكان البلدة فى حالة استنفار واستعداد غير عاديين ؛ وهذه الأمور كلها ، غير مواتية لنا وليسست فى صالحنا ، نحن الذين كنا نريد أن نقلت من البلدة بهدوء وبدون أن يلاحظنا أحد بقدر المستطاع ، وبينما كنا ننتظر فى بلدة معان طوال عشرة أيام مرهقة ، استرعى ظهور المرشدين القادرين على إرشادنا طوال رحلتنا ، انتباه حكام البلدة ، وانتباه الأفندياء الأتراك وانتباه الحامية التركية نفسها ، وجعلهم يراقبوننا عن كثب ، ولم يستطيعوا الوقوف على الأسباب التى جعلتنا نتخلى عن مبيعات رائجة ومريحة فى طريق مكة ، وبخاصة فى موسم الحج ، إلى مشروع أحرق لا طائل من ورائه ويتمثل فى عبور الصحراء الشرقية ، وبناء عليه ومن باب السخرية منا ومن عملنا التجارى ، ورغم أن تلك السخرية لم تخل من شىء من الشك والريبة ، راح هؤلاء الحكام والمسؤولون يبذلون الجهود لإقناعنا بسلوك طريق مكة ، غير أن رفضنا أضحى محرراً وغير منطقي ، وإن أقول أكثر من ذلك ، ومع ذلك ، توصل الآخرون الذين كانوا يولون فننا ومهارتنا الطبية اهتماماً كبيراً إلى تفسير مفاده أن الهدف الحقيقى وراء إصرارنا على أن نسلك طريق الجوف لابد وأن يكون البحث عن الكنوز المخبأة ، التى لا يعلم متى ومن خباها سوى الله وحده ، فى أعماق الجزيرة العربية ؟ وأن المغامرين المغاربة ، الذين يذيع صيتهم فى الطب وفى العلوم الطلسمية ، هم الذين يبحثون عن هذه الكنوز ويعبرون الصحراء من أجلها بين حين وآخر ، وهذه الفكرة هى التى جعلت أصدقائنا يساندون خططنا أملاً فى الحصول على نصيب من الأرباح المرتقبة ، ويشجعونهم أنفسهم فى البحث عن مرشدين جيدين لنا ، لم يكن بوسعنا العثور عليهم بغير مساعدة هؤلاء الأصدقاء لنا ؛ وبذلك أمكن لنا بهذه الطريقة التغلب بسهولة على واحدة من المشكلات المعقدة تماماً ، ولنعد الآن إلى مسيرتنا مرة أخرى .

وبعد أن حملتنا رحلة الخبب السريع التى استمرت عدة ساعات ، إلى مسافة بعيدة عن بلدة معان ، وأخذ احمرار القمر يتلاشى على أثرها من ناحية الغرب ، توقف مرشدونا عند بقعة صغيرة من العشب الجاف فى منتصف السهل الصخرى الأسود ، وبعد أن تبادلوا معنا كلمات قليلة ، وبركوا الجمال وأنزلوا عنها أحمالها ، وتركوها

ترعى حرة ، تحت سمع ويصبر واحد من المجموعة ، على حين نامت بقية المجموعة عدة ساعات بالقرب من أمتعتنا ، التي وضعناها على شكل كومة بالقرب منا ؛ ومع ذلك ، فقد كان النوم مجرد غفوة ، إذ ما أن بزغت أول خيوط الضوء من ناحية الشرق ومن خلف نجوم الصباح الفضية حتى أيقظنا المرشدون لنعيد وضع أحمالنا على الجمال ، ونمتطي صهواتها كيما نستأنف المسير .

وأشرقت الشمس ، ثم شاهدت بعد ذلك ، ولأول مرة ، ذلك الذي أصبح منظرًا يوميًا ، ألا وهو التعبد اليومي الذي يمارسه البدو في أراضيهم ، وما أن بدأت أشعة الشمس تظهر عند الأفق ، حتى بدأ رفاقنا البدو الذين ولوا وجوههم صوب قرص الشمس المشرق ، دون وضوء أو النزول عن ظهور جمالهم ، يتبادلون تلاوة صيغ وابتهالات محددة ، ولم يتوقفوا عن ذلك إلا بعد أن بدى قرص الشمس واضحًا عند حافة الصحراء ، وبرغم أنهم عبدوا الشمس قبل أن يبعث محمد (ﷺ) ، فقد ظلوا كذلك بعد بعثته ؛ كما أن كل ما قاله نبي الحجاز ، أو ما يردده القائلون على شريعته ، عن قرون الشيطان التي تشرق الشمس من بينها ، كما هو معروف أو هو ما يجب أن يعرفه أتباع محمد ، وبرغم عبادة الجن التي تترتب على الصلاة والعبادة ، في مثل ذلك الوقت ، وفي وضع يتوجه البدو فيه بصلاتهم وعبادتهم صوب رأس الشيطان ، فأن كل ما قيل عن هذه الأمور ألقى بكامله على كاهل أولئك المشايخين المتعصبين للأعراف القديمة^(١) .

والحقيقة هي أن دين محمد (ﷺ) ، لم يترك لدى السواد الأعظم من البدو الرّحل ، على امتداد اثني عشر قرنًا سوى انطباع قليل جداً عن الصواب أو الخطأ ؛ الحقيقة هي أن دين محمد (ﷺ) لم يكن له أيضا تأثير يذكر في هذا الجزء من

(١) ما ذكره المؤلف عن تعبد البدو للشمس أو سجودهم لقرن الشيطان إنما هو تلبيس وتديس ، حيث أن الثابت تاريخياً أن الإسلام عم أرجاء الجزيرة العربية ، وأن جميع القبائل دخلت الإسلام سواء كانوا حضراً أم بدواً وأن ما ذكره المؤلف من التعبد تجاه قرص الشمس إنما هو الصلاة عند دخول وقت الصبح والاتجاه إلى القبلة ، التي غالباً ما تكون جهة المشرق ، وأن تلك الترنيمات التي ذكرها المؤلف إنما هي التسبيحات والأذكار التي تقال عند الصباح في كل يوم ويصدق ذلك حديث رسول الله (ﷺ) "أن الشيطان قد بأس أن يُعيد في جزيرة العرب بعد اليوم" وهذا يدل على انتشار العقيدة الصحيحة في كل أنحاء الجزيرة العربية في حياة الرسول (ﷺ) ، وما كان بعد ذلك من انحراف ، فهو ردة وتقصير في الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي (د . حلمي عبد المنعم) .

الجزيرة العربية ، فى مطلع ظهور الإسلام ، وهذا هو ما يخبرنا به القرآن ، وما يقول به الأثر الوثيق ، وليس معنى ذلك أن البدو من جانبهم كانوا ممقوتين من إخوانهم المسلمين أو من الإله الواحد (الله) ، وإنما لأن البدو أنفسهم عجزوا ، ولا يزالون عاجزين ، عن تلقى أو استيعاب أى شىء من تلك التأثيرات المهمة ، أو الصيغ والممارسات الفكرية المحددة التى كانت بمثابة القوالب الأصلية الخالدة عند مسلمى الحجاز وفى مناطق أخرى كثيرة ؛ والحال هنا يشبه أثر الختم الذى ينمى بفعل الماء ، فى حين أن الشمع يحافظ عليه ، وهكذا نجد أن اللعنة التى تقول : "ولأنك متقلب مثل الماء ، فلن تتفوق" ، والتى قُصِدَ بها ريوبيبن REUBEN ، قد حلت بكل معانيها على بدو الجزيرة العربية ، وفى ذات الوقت ، ونظرا لأن البدو كان يحيط بهم المسلمون المخلصون من كل جانب ، أو لأنهم كانوا يعتمدون على هؤلاء المسلمين المخلصين ، فقد رأوا أن من الحكمة أن ينتحلوا بين الحين والآخر اسماً شقيقاً ورمزاً ، وأن يسموا أنفسهم بأنهم من أتباع محمد فى الوقت الراهن ، بل إنهم كانوا يؤدون أيضاً بعض الصلوات أو الطقوس الإسلامية ، فى الوقت الذى كانوا يحاولون فيه تعلم شىء من هذه الصلوات أو الطقوس ، ولهذه الأسباب نفسها فإن البدو بصورة عامة أكثر حرصاً على الحفاظ على وجود عقيدة وأعمال تتباين تبايناً واضحاً عن العقيدة السائدة فى البلاد ؛ تماماً مثلما فعل الفجر - رغم أنى لا أعرف إن كان ذلك صواباً أم خطأ فى أوروبا المسيحية على امتداد عدة قرون ، ومن ثم فإن هؤلاء البدو عندما يحسون بالأمان وأنهم فى مأمن من الخوف والكبت والسيطرة يبدعون فى الكشف عن ألوانهم الحقيقية ؛ ويندر على الغرب أن تسنح له الفرصة بمشاهدة البدو فى مثل هذه الظروف ، أما فيما يتعلق بأشباه البدو داخل الأراضى السورية ، أو المصرية أو الحجازية فإن الاختلاط المستمر ، مع البلدان ومع السكان التى تتخذ من الإسلام عقيدة ومذهباً ، أعطى هؤلاء البدو بدورهم صبغة مميزة أيضاً ، من هنا فإن الحكم الذى أصدره العديد من الرحالة الذين اتصلوا بهذا أو ذاك النوع من البدو ، والذى مفاده أن البدو بصورة عامة هم من أتباع محمد ، مثل بقية المسلمين ، باستثناء البدو المنحطين : هذا الحكم لا ينطبق إلا فى ظل القيود التى أوردناها آنفاً .

يبدو لنا سطح الأرض مستوياً وذا خلفية متجانسة من المسافات البعيدة ، ولكننا إذا فحصناه من مسافة قريبة يظهر لنا ، فى معظم الأحيان ، مكسراً وليس مستوياً ، كما تظهر أيضاً ألوان عدة فى المنطقة التى لم نكن نرى فيها سوى لوناً واحداً .

وقد أعلن ، على الملأ ، السيد/ فينلى FINLAY المؤلف المحايد ، صاحب كتاب " الامبراطورية البيزنطية " وليس هناك من وهم أكثر من وهم الحديث عن وحدة الكنيسة المسيحية " ، وأيا كان الأمر ، فبوسعى أن أثبت انطباق هذا الحكم انطباقاً تاماً على الإسلام فى الشرق ، إذ أن مقدار الانقسام السرى ، والحقد ، وخطأ العقيدة (إذا ما أخذنا دين محمد مقياساً لنا) والكفر فى الأراضى التى تبدو من الناحية الشكلية داخلة فى عقيدة القرآن المشتركة الواحدة ، أكثر من أى مكان آخر فى العالم ، ومع ذلك سوف يتعين علينا أن نعود إلى هذا الموضوع مراراً كلما مضينا قدماً فى هذا الكتاب ؛ ولعلنا نكتفى هنا ببو الشرات الذين تجعل من عزلتهم داخل تلك "البرارى السحيقة العاصفة" مثلاً جيداً على جنس من البدو الحقيقيين الخُص .

وفيما يخص بدو الشرات ، وجدت أنهم جميعاً وبلا استثناء ليسوا أفضل من أى راع من رعاة الماشية الإنجليز الأماء ، فى إمامهم بصيغ العبادة المحمدية المعتادة ، بكل ما فيها من سجد وتكرار ، بكل وضوئها وطقوسها ؛ وجدت أيضاً أنهم لا يعرفون شيئاً عن الحج ، اللهم باستثناء معرفتهم لأساليب نهب الحاج ؛ كما وجدت أيضاً أنهم لا يبالون بالتزامات شهر رمضان ولا بفضائل صومه ، ولكن وجدتهم ، من الناحية الأخرى ينحرون الذبائح التى من قبيل الأغنام والإبل على قبور الموتى من أقاربهم ، وأنهم يكررون هذه العملية ، وأنهم يعرضون النقص فى طقوس الإسلام بما يسىء إليه .

زد على ذلك أن رخصة السلوكيات البدوية المبالغ فيها هى التى تجعل منهيات ومباحات الشريعة الإسلامية (المحمدية) فى موضوع الزواج غير ذى بال ولا ضرورة لها ، وأخشى أن يكون الزواج الجماعى ، وليس التعدد ، هو الذى يجسد أحوال الزواج عندهم ، إضافة إلى أن العبارة التى تقول : "إنه لطفل ماهر ذلك الذى يستطيع تعرف من أنجبه" يشيع تطبيقها بين هؤلاء البدو ، والواقع أنه فيما يتعلق بموضوع الزواج ، وفيما يتعلق أيضاً بموضوعات أخرى كثيرة تتصل بذات الموضوع ، والتى أرجو من القراء أن يعفونى من الخوض فيها ، وجدتهم يرددون تعبيراً شائعاً بينهم يقول : "الكلاب أفضل منا" على مرأى ومسمع منى ، وأنا هنا أكبرُ فيهم قول الحق ، كل الحق ، ولا شىء غير الحق ، وبعد هذه الصورة المبدئية التى رسمتها لحياة البدو وسلوكهم ، والتى سوف استكملها تبعاً ، هيا بنا نعود الآن إلى مسار حكايتنا اليومى .

عندما طالعنا بعض الأشجار القزمية المتناثرة ، التي تعد علامات على مياه وقباء WAKBA ، والتي كنا قد يمينا المسير إليها لم يكن يتبقى على حلول الظهيرة سوى ساعتين تقريباً وكانت الحرارة شديدة جداً ، وبينما كنا على بعد مسافة قصيرة من ذلك المكان ، استحث واحد من البدو المرافقين لنا ، جملة إلى حد الخبب واتخذ لنفسه مساراً دائرياً حتى يتأكد بنفسه من عدم ترصد أو اختباء أحد من أفراد القبيلة المعادية، فى المنطقة المجاورة لأبار الماء ؛ ولكن المنطقة كانت خالية من الصديق والعدو، إذ كان المكان صامتاً ؛ وكانت أنقاض القرية المهدامة المهجورة التي تناثرت هنا وهناك على المنحدرات الزلطية وبالقرب من مجرى جاف لواحد من سيول الشتاء ، تبدو كنيبة فى حرارة شمس الظهيرة المتزايدة ، كما توجد فى تلك المنطقة عدة آبار ضحلة ، يكتظ بعضها بالأحجار ، ويعطى بعضها الآخر كمية ضئيلة من الماء قليل الملوحة المختلط بالطين ، وتقع بالقرب من الأشجار الشوكية ، وملأنا من هذه الآبار قرب الماء ، وهى عملية أنجزناها بحرص وإتقان ، لعدم وجود أى مصدر للماء ، على طريقنا ، إلا بعد مسيرة أربعة أيام بأقصى سرعة ممكنة ؛ وهذا اعتبار مهم ، خاصة فى أواخر شهر يونيو .

وبعد أن أنهينا كل هذه الأمور ، ركبنا الجمال مرة ثانية ، ووجهنا رءوسها صوب الشرق من جديد ، بينما رحت أنا أنأظر المناظر الطبيعية الشاسعة من حولي ، وهنا بدأت تتراعى لنا سلسلة جبال شرعاء 'SHERAA' ، برغم أنها كانت تختفى عن أنظارنا بسرعة نظراً لبعدها المسافة ، فى حين كان يمتد على جانبيها ومن أمامنا سهل كئيب من العدم الأسود الذى يبعث الملل فى النفوس ، لم يكن يحيط بنا من كل جانب سوى بحيرات السراب التي تخدع الأعين وتضلها بحدودها الخارجية الخادعة ، فى حين كانت تتناثر هنا أو هناك صخور البازلت التي كانت تظهر على نحو غير متوقع عبر ذلك السهل المستوى ، وتبدو بفضل انعكاس أشعة الجو الحار كما لو كانت جرفاً هائلاً شديد الانحدار أو جبلاً معلقاً ، أرض الموت الموحشة التي يبدو وجه العدو فيها منجاة وسط هذه العزلة التامة ، ولكن على امتداد خمسة أيام كاملة كانت سحالي السهل ، التي كانت أجسامها تبدو خالية تماماً من أية قطرة من الماء ، وكذلك الجرابيع ، أو فئران الحقل فى الجزيرة العربية ، هى المخلوقات الوحيدة التي كانت تواسى أبصارنا .

ثم تلت ذلك مسيرة ، ربما ندمنا خلالها على القيام بهذه الرحلة ، لو كان للندم نفع أو فائدة، فقد وجدنا أنفسنا يوماً بعد آخر نستحث جمالنا طلباً لسرعتها القصوى، طيلة خمس عشرة أو ست عشرة ساعة من الأربع والعشرين ساعة ، تحت شمس عمودية من فوقنا ، والتي كان أحباش هيرودوت على حق عندما لعنوها ، ولم يكن على سطح الأرض ولا فى رفاق الرحلة أى شىء يمكن أن يريح البصر أو الذهن ولو للحظة واحدة ، ثم تلت ذلك وقفة قصيرة كى نستريح أو ننام خلالها ، مدة ساعتين أو ثلاث على أكثر تقدير ، سرعان ما كان يتخللها دوى التحذير الذى كان يتردد فى معظم الأحيان ليحذرننا أننا "إذا تخلفنا فى هذا المكان فسوف نموت جميعاً من الظمأ" ؛ ثم نعود إلى ركوب جمالنا المجهدة ونروح نستحث خطاها فى جوف الليل البهيم وسط احتمال مستمر بهجوم السلاّب الجائلين علينا ونهب ما معنا ، أما أنا نفسى ، فقد كنت تحت تأثير حمى رجعية أصابتنى عندما كنت فى بلدة مُعَان ، وبدا ذلك الذى كان يتأرجح بين الإجهاد والروح المعنوية المتدنية ، يتخيل بحق أن الماء الذى كان ينتظرنا هو ماء الموت لنا وماء النسيان لأصدقائنا ، ومرت الأيام كما لو كانت حلماً مليئاً بالهذيان ، إلى حد أننا كنا ، فى أحيان كثيرة ، نفقد الوعي بالأرض التى نسير عليها وبالرحلة التى نقوم بها ، ولم يظهر عند أقدامنا سوى نوع واحد من العشب ليوحى لنا بشىء من التغيير والحياة ؛ إنه عشب الحنظل المر الصحراوى السام .

وجاء نظام سيرنا على النحو التالى ، فقد كنا نبدأ المسير قبل طلوع الفجر بوقت طويل ، ونستمر فيه، إلى أن تصل الشمس إلى وضع تتوسط فيه الأفق وسمت الرأس ، وهو الوقت المحدد لإشعال النار طلباً لأعداد وجبة الصباح ، وكان البدو المرافقين لنا يحرصون دوماً أن يكون ذلك فى غور من الأغوار الأرضية أو فى مكان منخفض ، حفاظاً منهم على الإخفاء والتستر : أما فى الأمور الأخرى فقد كان لنا مطلق الحرية ، إذ كانت مسألة اختيار رقعة صغيرة من الأرض التى يكسوها الحصى الأسود وشىء من الرمل والحشائش الجافة ، طلباً للمأوى أو الظل أو الأشياء التى من هذا القبيل ، أمراً لا يقبل الجدل أو النقاش فى مثل هذه "الأرض الجرداء" ، وبعد أن أشعلنا النار ، كنت أنا ورفيقي نكدس أمتعتنا على شكل جدار يشكل شبه حاجز يحمينا من أشعة الشمس الحارقة، ونستلقى بجواره فترة من الوقت ، ثم تبدأ بعد ذلك تجهيزات الطهو ، التى تتفق تماماً مع طبيعة المؤن التى تحملها معنا ، والتى كانت غاية فى البساطة وتمثل تلك المؤن الحقيقية التى يتزود بها الرحالة العرب الحقيقيون ؛ كانت تلك المؤن

على وجه التحديد عبارة عن جوال من الدقيق الخشن المخلوط بالملح ، وقليل من التمر ، دون أن يكون هناك صنف ثالث على قائمة الطعام ، ثم أحضرنا بضع حفنات من الدقيق ، عجنها أحد البدو بيديه غير المغسولتين أو بقطعة من الجلد المتسخ ، وصب عليها شيئاً من الماء الأسن الذي فى حوزتنا ثم قام بعد ذلك بتسوية العجين على شكل كعكة كبيرة مستديرة ، يصل سمكها إلى حوالى بوصة واتساعها حوالى خمس أو ست بوصات ، وفى ذات الوقت ، يقوم بدوى آخر بإشعال النار فى شىء من الحشائش الجافة ، وجذور الحنظل ، وروث الإبل الجاف ، إلى أن يصنع من ذلك جمرأ متوهجاً ؛ ثم يلقي بالكعكة بين هذه الجمرات ويغطيها بعد ذلك مباشرة بالرماد الحار ، ويتركها بضع دقائق ، يخرجها بعدها ليقبلها على الوجه الآخر ، ثم يغطيها بالرماد الحار مرة ثانية ، إلى أن تصبح فى النهاية نصفها عجين ، والنصف الآخر نئى ، وشبه مخبوزة ، وأكثر من نصفها محروقا ، ثم يخرجها بعد ذلك لتقسم على المجموعة الجائعة ، لتأكلها وهى حارة تماماً قبل أن تبرد وتتحول إلى مادة جلدية تستعصى على الوصف ، تتحدى أشد الشهايا انفتاحاً ، ولم يكن يصاحب هذه الكعكة سوى جرعة من الماء الأسن .

وبعد أن انتهينا من تناول الوجبة ، استأنفنا على الفور مسيرنا من سراب إلى سراب ، إلى أن "قارب على الانتهاء ذلك النهار الذى كان يزداد حرارة على حرارة" ، وقبل غروب الشمس بحوالى ساعة واحدة كنا نترنح ونحن ننزل عن ظهور الجمال ، استعداداً لتجهيز وليمة المساء التى كانت تماماً من قبيل وجبة ما قبل الظهيرة ، بل إننا فى أحيان كثيرة كنا نكتفى بالتمر ونصف ساعة من الراحة على الرمال ، خشية أن يلفت إلينا الدخان الصادر عن النار انتباه أفاق بعيد عنا ، وأخيراً نفذ التمر ، مثلما نفذ كيس خبز عيسوب AESOPE (ESOPE) أو بيهاس BEYHAS نظيره العربى ؛ وهنا تحول عشائنا إلى ما يشبه عشاء الجنود ؛ ذلك الذى يعرفه أصدقائى من العسكريين ؛ ولم يكن لنا من سرير سوى حبيبات الرمل والحصى ، وبعد النوم على الرمل والحصى ، كنا نعاود ركوب الجمال ، ونستأنف المسير فى ضوء القمر أو الاهتداء بالنجوم ، إلى ما قبل منتصف الليل بقليل حيث كنا نستلقى أرضاً لناخذ قسطاً كافياً من النوم الذى كنا نعذب به أنفسنا ولا نريح به أجسادنا .

"هل ستواصل المسير معى ؟ " أيها القارئ الكريم ، فى هذه الرحلة العربية ؟ من ناحيتى ، أنا أقر أن تذكرى تلك الحكاية الصغيرة فى الرائعة التى عنوانها "الجمال

النائم" التي كتبها صديق من أصدقائي ، أن أذن لي أن أسميه بهذا الاسم ، والذي يعنى اقتباسي عنه تسمية له - تلك الحكاية التي لها مغزى رغم أن مؤلفها ينكر ذلك - هي التي قوّتني وشدت من أزرى في هذه المناسبة وفي مناسبات أخرى شبيهة بها ؛ إنه "تكرار الفشل ، وتوحد النجاح" ، والثقة في "تنوير شيء عادل" هما اللذان رفعنا من روحى المعنوية وشجعانى ، وبذلك يمكن القول بأننى "ربطت هذا الهدف بنهاية مفيدة" ، مع العلم بأن ذلك الهدف لم يكن تماماً ذلك الهدف الذى كان يقصده ألفريد تينيسون TENNYSON . ومع ذلك ، شأنه شأنى تماماً ، يتعين عليه أن يرهق نفسه فترة من الوقت مروراً بمصاعب ذلك "الحاجز" HEDGE الصحراوى ، إلى أن يقتحم حاجزاً آخر جميلاً ، مثلما فعل الأمير ، إن لم تخنه شجاعته ؛ إن أشياء أجمل وأحسن تنتظرنا في الفصول القادمة .

يضاف إلى ذلك التشجيع الذى استجمعناه أنا ورفيقي من الذاكرة ومن بنات أفكارنا ، أن رفاقنا من البدو كانوا يشجعوننا دوماً وفي جميع الأوقات ، بأن راحوا يؤكدوا لنا إنه برغم أن ذلك الأسلوب الترحالى السريع يعد أمراً ضرورياً تماماً فى أرض يحيط بها الخطر والجفاف من كل جانب ، إلا أن هناك مسيرات لينة هينة وحرمان أقل فى انتظارنا فور وصولنا التخوم الحدودية لـ - طلال بن الرشيد ، عاهل جبل شومر SHOMER . وأضاف هؤلاء الرفاق أن تلك الحدود تبدأ من وادى السرحان VALLEY OF SERHAN ، الذى كنا نقترّب منه بسرعة ، والماء فيه عذب وغزير ، ويحميه اسم طلال القوى من الأعداء والغزاه ، آناء الليل وأطراف النهار .

أفاض البدو المرافقون لنا فى الحديث عن طلال ، وتحدثوا كثيراً عن نشاطه ، وعدله ويقظته ، وعن شجاعته العسكرية برغم حديثهم فى الوقت نفسه عن تدميرهم منه لأنه يجمع حرية البدو ، والقيود التى قيد بها حقوق البدو الفطرية فى النهب والسرقعة والقتل من وجهة نظرهم هم تلك الشكاوى التى جعلتنا ، على العكس مما قصد إليه الراوى نزيد ولم نقلل من تميمنا لذلك الحاكم ، أيّاً كان ، وحتى ذلك الحين ، لم يكن قد توفر لدينا سوى القليل جداً من المعلومات عن التاريخ الشخصى لذلك الأمير أو مركزه السياسى ، كان يسعدنا أن نعرف إن كانت سلطته أساسية أم ثانوية ، وهل هو مؤسس مملكته أم وارثاً لها ؟ وما مدى وطبيعة المملكة ذاتها ؟ وأشياء أخرى كثيرة ، كنا نود معرفة كل هذه الأشياء وحاولنا الوقوف عليها من كل من على ، وسليم العطنة ،

وجوردي ، ولكننا لم ننجح في ذلك : والسبب في ذلك أن أفكارهم ولغتهم كانت مرتبكة ومتضاربة نظراً لأن الأمر كان أكبر من مستواهم ، من هنا ، فإن كل ما استطعنا التأكد منه في تلك المرحلة ، هو أن ذلك الأمير كان يقيم في مدينة حائل ، التي تقع في جبل شومر SHOMER ، في مكان ما ناحية الجنوب الشرقي ؛ وأن هذا الأمير كان قوياً جداً ؛ وأنه لم يكن يسمح داخل مملكته بالسلب أو النهب أو الخروج على النظام العام : وأن كلمته كانت تسرى مسرى القانون في وداى السرحان من الناحية الجنوبية والناحية الشرقية ، ورأينا في وضعنا الراهن أن نكتفي بهذه المعلومات على أمل أننا كلما اقتربنا من مملكته زادت معلوماتنا واتضحت أكثر فأكثر .

كنا نعلم فعلاً أن وسط الجزيرة العربية، ينتمي في بعض أجزائه، على أقل تقدير ، إلى الأسرة الوهابية المالكة ، وأنا أحسب أن القراء على علم تام بالاسم "وهابي" ومغزاه العام إلى الحد الذي يعينني هنا من تقديم تفسير مسبق لهذا الاسم ، وبخاصة أن فصولاً عدة من هذا الكتاب سوف تتناول الأرض والسكان اللذين أعطيا ذلك الاسم شهرة واسعة وصيتاً ذائعاً ، وعن طلال بن الرشيد بصفة خاصة ، وبصفته حاكماً يرتبط بالوهابية بشكل أو بآخر ، سمعت ذلك يتردد ولكن بصورة غامضة وغير واضحة في كل من سوريا ودمشق ؛ حيث كان البعض يميزونه عن الأسرة المالكة في نجد ويخلط البعض الآخر بينه وبين الأسرة نفسها . وعليه جمعنا بين هذا وذاك ، وتوصلنا إلى أنه لابد أن يكون حاكماً تابعاً ، أى حاكماً إقليمياً ، نائباً عن الحاكم الوهابي ؛ وهذا نوع من الحدس ، لم يكن يمثل سائر أنواع الحدس الأخرى ، صائباً تماماً .

كان اليوم يوافق الثاني والعشرين من شهر يونيو ، أى اليوم الخامس من تاريخ مغادرتنا منطقة أبيار وقياء ، ولم يكن الماء المتبقى في القرب الجلدية والتي زادت فيه نسبة الطين ، يكفي لإطفاء ظمئنا ، ولم تظهر حتى الآن دلائل الحصول على كمية جديدة من الماء ، وأخيراً وصلنا ، قبيل الظهر إلى بعض الهضاب الصغيرة التي تتكون من الزلط والحجر الرملي ؛ وإلى اليمين منا تشاور البدو المرافقون لنا مع بعضهم بعضاً برهة قصيرة ، غيروا بعدها مسارهم ومسارنا إلى نفس الاتجاه ، ونادانا سليم قائلاً : "تشبثوا بالجمال لأنها سوف تفرع وتدور حول نفسها ، ولم أفهم الأسباب التي تجعل الجمال تفرع وتدور حول نفسها ؛ فقد شاهدنا أثناء عبورنا الجبال التي ورد

ذكرها خمسا أو ستاً من الخيام السوداء ، من النوع الفقيرة جداً والمتواضع تماماً ، نصبها أصحابها بالقرب من بعض الأبيار المحفورة في التجويف الزلطي في الأرض المنخفضة عن هذه الخيام ، وهنا بدأت تتضح أسباب التحذير الذي أطلقه سليم ، إذا بدأت جمالنا السخيفة ، بعد أن أبصرت الخيام ، كما لو كانت لم تر شيئاً من هذا القبيل قط قبل ذلك ، بدأت الجمال تعدو هنا وهناك ، وتروح هنا وتروح هناك ، إلى أن تسبب نخعها (لأن ركوض الجمل يشبه ركوض البقرة) وضحكنا ، في فشلنا في البقاء على ظهورها ، وهنا سرعان ما تطلب ظمأ الجمال على ألفتها ، فتركت مزاحها وراحت تقترب من حافة البئر وتتشمم ما به من ماء .

وشبيننا النار ، وسرعان ما اقترب منا سكان الخيام ، وهن عدد من النسوة يعددن على أصابع اليد الواحدة ورجل أو اثان من كبار السن ، وكلهم ينتمون إلى قبيلة الشرارات ، التي تنتشر في أنحاء هذه الصحراء ، اقتربوا منا ليقولوا لنا "مرحباً" ويا هلا! إلخ كل هذه العبارات ، وليسألونا أيضاً عن أسباب رحلتنا والمكان الذي نقصده ، ولم يكن فضولهم هذا بدون مبرر ؛ والسبب في ذلك أن المسار الذي سلكناه إلى هذا المكان لم يكن مطروقاً في أى وقت من الأوقات ، وبخاصة القادمين من دمشق أو من المنطقة المجاورة لها ، فقد دلت ثيابنا ولهجتنا على أننا من دمشق ، وفي هذه الفترة من ذروة الصيف ، غير أننا كنا قد بلغنا من التعب والإرهاق مبلغاً لم نستطع معهما التحدث كثيراً عن هذه الأمور ، وكنا نبحث عن قليل من الظل كي نستظل به بعد هذه المسيرة الطويلة ، بدلاً من حديث مستفيض عن أسباب الرحلة ومقاصدها ، وعليه ، تركنا البدو المرافقون لنا لحال سبيلهم ، فقد كانوا هم أيضاً مهودين من التعب والإرهاق ، وراحوا يسحبون الماء من البئر بطريقتهم الخاصة ويسكبونه في التجويف الصغير المجاور للبئر كي تشرب منه جمالهم ، ولو شاركنا في هذه العملية لكنا قد عطلناها بدلاً من المساعدة على إنجازها ؛ وبعد الاستئذان والموافقة ، دخلنا خيمة صغيرة ضيقة كان الهدف من أغطيقتها السوداء هو استبعاد الضوء ومنع انتقال الأشعة المتولدة عن حرارة الظهيرة ، وداخل الخيمة استلقيت أنا ورفيقي على الرمل إلى أن يحلوا لرفاقنا البدو أن يجيئوا إلينا ويجبرونا على النهوض ، وقد حاول الأخصاء أن يجبرونا على النهوض بعد فترة قصيرة جداً غير أننا أجبناهم ، أننا طالما أصبح لدينا كمية كافية من الماء ، وطالما اقتربنا ، أو كدنا تقترب ، من تخوم ابن الرشيد الحدودية فليس هناك ما يدفعنا إلى مثل هذه العجلة وهذا التسرع ، ولا كان

سليم متفتحاً فقد سلّم بقوة الأسباب التي أوردناها ، وبقينا داخل الخيمة إلى أن غابت الشمس وبدأ النسيم العليل ، وفي ذات الوقت أتحفتنا صاحبة الخيمة ، تلك العجوز القبيحة الشمطاء طيبة القلب ، شأنها في ذلك شأن غالبية البدويات بخطبة انتقادية لاذعة عن استبداد ابن الرشيد ، والقهر الذي كان يمارسه على أبناء بلدها ، خلصنا منها إلى أن ابن الرشيد كان يؤدي ذلك الذي يكون مفروضاً على ملك يحب النظام ، ومن هنا ازدادت قيمته في نظرنا .

وعندما استأنفنا مسيرنا في المساء اكتشفنا تغير شكل الصحراء العام إلى حد ما إذ بدأت تظهر على سطح الصحراء الأسود بقع كبيرة من الرمال والحشائش ، التي تزايدت أعدادها وأحجامها مع استمرار مسيرنا ، وفي اليوم التالي ، الموافق الثالث والعشرين من شهر يونيو ، زاد وضوح العلامات التي توحى باقتراب وصولنا إلى وادي السرحان ، وعندما اتجهنا صوب الشمال حتى يتسنى لنا الدخول إلى وادي السرحان شاهدنا عن بعد سلسلة من التلال الزرقاء ، تمتد من الغرب إلى الشرق ، وتشكل جزءاً من البيداء السورية العربية ، وأعلم جيداً إنها لم ترد ضمن الخرائط الأوربية ، وربما كان السبب في ذلك هو عدم اكتشاف ذلك الجزء ، أو بسبب عدم اكتشاف ذلك الجزء ، أو بسبب عدم استكشافه تماماً على أقل تقدير ، وراحت ، في الوقت نفسه ، البقع الرملية تتزايد من حولنا في كل اتجاه كما راح البدو المرافقون لنا يمتنون أنفسهم بالوصول إلى وادي السرحان قبل حلول الليل .

ومع ذلك ، وقع عند هذه المرحلة من الرحلة ، حادث كاد أن ينهي على الرحلة والرحالة على حد سواء ، ولا بد أن يكون القارئ ، قد قرأ مثلما قرأت أو سمع مثلما سمعت قصصاً كثيرة عن ما يسمى بالسُموم ، أو تلك الريح الصحراوية المميتة ، ولكن بالنسبة لي لم يحدث قط أن واجهتها وهي في كامل قوتها وعنفوانها ؛ ولم يحدث قط أن واجهتها في شكلها المعدل ، أو في مرحلة الشلوك ، كما يقول المصطلح العربي ، معنى ذلك أن الشلوك هذه هي الريح الحارة المزعجة التي تهب على البيداء السورية ، وبرغم أن هذه الريح مزعجة بما فيه الكفاية إلا أنها لا تدخل في عداد الرياح الخطرة ، من هنا فقد أثرت تسجيل الحكايات التي حكاها أصحابها عن الظواهر الغريبة والآثار المميتة، التي تترتب على هذه "العاصفة المسمومة" ضمن حكايا الكتبان الرملية المتحركة ، التي ورد ذكرها في كتب تتسم بالطابع التاريخي أكثر من كتاب "THALABA".

وعندما كنت استفسر من أولئك البدو الذين كانوا يشاركون فى أرتال اجتياز الحدود أو فى القوافل التى تجوب الرمال ، عن مثل هذه الحكايات ، كانوا ينفجرون فى الضحك ، ويقولون : إنه باستثناء العواصف الترابية الطارئة ، التى تشبه تلك العواصف التى يندر ألا يواجهها أى إنسان يزور بلاد السند SINDE فى فصل الصيف فإن الجزيرة العربية لا يهب عليها أى نوع من أنواع الرياح الرومانسية التى كنت ألمح إليها ، ولكنى عندما كنت أسألهم عن تاريخ السموم ، كانوا يأخذون الأمر ، دوماً ، مأخذ الجد ، وهاهو ما نحن فيه الآن .

كان الوقت قبيل الظهيرة ، وما أدراك ما الظهيرة أيام الصيف تحت سماء الجزيرة العربية الخالية من الغيوم ، وفوق الصحراء المحروقة ، عندما بدأت تهب فجأة عصفه ربح حارقة على شكل نوبات متقطعة ، من ناحية الجنوب ، وراحت كثافة الهواء ووطائه تتزايدان لحظة بعد أخرى ، إلى أن بدأت أسأل رفيقى ويسألنى عن معنى ما يدور من حولنا ، وما يمكن أن يترتب عليه من نتائج ، واتجهنا بأسئلتنا إلى سليم العطنة الذى كان قد لف وجهه بالفعل فى عبائه وانحنى إلى الأسفل منكفئاً على عنق جملة ، ولم يجبنى ولو بكلمة واحدة ، وكان زميلاه من بدو الشرارات ، قد اتخذوا وضعا مماثلاً والتزما الصمت تماماً . أخيراً ، وبعد أن عاودت السؤال مراراً أشار سالم بدلاً من أن يجيب على سؤالى بطريقه مباشرة ، إلى خيمة صغيرة شاعت العناية الإلهية أن تكون أمامنا وبالقرب منا ، ثم قال : "حاولا الوصول إلى هذه الخيمة ، لأننا إن أفلحنا فى الوصول إليها سنكون من الناجين" ، وأضاف قائلاً "انتبها ولا تدعا جمليكما يتوقفان ويبركان" ؛ وراح يكيل لجملة العديد من الضربات ، ثم لقه صمْتُ رهيبٌ .

ونظرنا بلهفة إلى الخيمة ؛ وكانت لا تزال تبعد عنا بحوالى مائة ياردة أو ما يزيد على ذلك ، وازداد ، فى الوقت نفسه ، عصف الرياح حرارة وعنفاً ، ولم نستطع حث جملينا على المضى قدماً إلا عن طريق محاولة ذلك مراراً وتكراراً ، وسرعان ما تحول لون الأفق إلى اللون البنفسجى الداكن ، وبدى وكأنه يطبق علينا من كل جانب مثل الستار ؛ فى حين بدأت تهب ، فى الوقت نفسه ، خلال هذا الجو الكئيب عصفه خانقة ، كما لو كانت صادرة عن فرن هائل انفتح فجأة فى طريقنا ؛ وبدأ جملانا أيضاً ، برغم كل المحاولات التى بذلناها يدوران من حول نفسيهما ويثنيان ركبهما استعداداً للبروك . لقد أطبقت علينا ربح السموم .

وكان من الطبيعي أن نحذو حذو العرب الذين كانوا يرافقوننا بأن غطينا وجوهنا ، ورحنا أيضاً نستحث جمالنا عن طريق الضرب والركل إلى أن أجبرناها على المضي قدماً صوب الملجأ الوحيد الذى فى متناولنا ، وقد بلغت ظلمة الجو ، والحرارة الحارقة حدّاً هُيئَ لنا عنده أن جهنم قد بزغت من الأرض ، أو هبطت علينا من السماء ، ومع ذلك وصلنا الملجأ المنشود فى الوقت المناسب ، وفى اللحظة التى بدأت العصفة السامة تحيط بنا فى أسوأ مراحلها ؛ وعندها كنا جميعاً ساجدين داخل الخيمة ، وقد لففنا رؤوسنا ، ونكاد نموت خنقاً ، ولكننا كنا فى مأمن من تلك الريح ؛ بينما كانت جمالنا ترقد خارج الخيمة وكأنها قد نفقت ، وهى تفرد أعناقها الطويلة على الرمل فى انتظار مرور العاصفة .

كان بداخل الخيمة عندما دخلناها أول مرة امرأة بدوية عجوز وحيدة ، كان زوجها يرمى إبله فى وادى السرحان ، وعندما أبصرت تلك المرأة العجوز خمساً من الرجال المتأثقين ، مندفعين إلى داخل منزلها دون استئذان أو تحية ، كان من الطبيعي تماماً أن تطلق صرخة تعبر عن الاستغاثة من القتل ، أو الحريق أو السرقة ، وأنا لا أعرف شيئاً آخر غير ذلك ، وسارع سليم إلى طمأنة العجوز بأننا "أصدقاء" ، ثم ألقى بنفسه على الأرض دون أن يلفظ كلمة أخرى ، وحذى الجميع حذو سليم فى صمت .

وبقينا على ذلك الوضع مدة عشر دقائق شعرنا خلالها بموجة حرارية ، تمر من فوقنا مثل تلك الموجة الصادرة عن الحديد بعد أن يُسخن إلى درجة الاحمرار ، ثم بدأت جدران الخيمة تترجرج على إثر عصفات الريح العائدة ولتعلن لنا أن أسوأ مراحل ريح السموم قد انتهت ، ونهضنا على أقدامنا ، وكاد يقتلنا الإرهاق والإعياء ، ورفعنا الأغشية عن وجوهنا ، وبدى رفاقى كما لو كانوا جثثاً وليسوا أحياء ، ومن المسلم به أنني كنت على الحال نفسه ، وعلى كل حال ، لم يكن بوسعى ، رغم التحذيرات ، أن أمتنع عن الخروج وألقى نظرة على الإبل ؛ التى كانت لا تزال مستلقية على الأرض كما لو كانت قد قتلت رمياً بالرصاص ، كان الهواء لا يزال مُغْبِراً ، غير أنه صفى مرة ثانية بعد فترة قصيرة وعاد إلى حاله التى كان عليها قبل العاصفة . كانت فترة هبوب ريح السموم خالية تماماً من الرمل والغبار ؛ إلى حد أنني لا أعرف الطريقة التى أستطيع بها تحليل هذا التناقض الفريد .

أما عن مضيفتنا ، وبعد أن تخلصت من قلقها ، وانتهت مخاوفها ، التي لم يكن لها ما يبررها ، فقد ظلت بلا حراك في ركن من أركان الخيمة وهي مغطاة تماماً ، إلى أن انتهت عاصفة السموم ، واستغلت العجوز فصاحة لسانها ، في أن تقدم لنا أفضل دليل على أن عاصفة السموم قد انقضت دون أن تخلف ورائها عرض من أعراضها ، وراحت أيضاً تشيع فضولها الشديد نحونا بعد التحفظ الذي فرضته عليها ظروف دخولنا الخيمة أول مرة ، ثم استأنفنا مسيرنا في ساعة متأخرة من المساء ؛ ثم دخلنا ، في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، وادي السرحان ، الذي أدخلنا فيه الكثير من التعديلات على طابع الرحلة التي كنا نقوم بها ، وقد يكون من المناسب ، قبل أن أروي ما حدث لنا في ذلك الوادي ، أن أقول شيئاً عن الموقع العام لذلك الوادي وخصائصه ، وعلاقاته النسبية مع الصحراء التي تحيط به ، هذا لا يعني أن وادي السرحان ليس معروفاً للجغرافيين أو الرحالة ، وإنما هناك بعض التفاصيل الخاصة بهذا الوادي ، وبخاصة في فرعة الجنوبي ، التي يهتم القارئ العادي أن يعرفها ويقف عليها ، ويجب ألا يغفلها البحث العلمي إغفالاً تاماً .

هناك حزام صحراوي واسع يمتد من جنوب البدياء السورية ، ويسير بمحاذاة المنطقة المجاورة للبحر الميت إلى أن يصل إلى وادي نهر الفرات ، وتتشابه أوصاف الجزء الأكبر من ذلك الحزام ، مع تلك الأوصاف التي أوردناها عن ذلك الجزء الذي عبرناه من الصحراء ، فالتربة في هذا الجزء قاسية وصخرية ، تتخللها بعض مصادر الماء الذي يصل إلى سطح الأرض ، حتى في فصل الشتاء ؛ وفي فصل الربيع تنبت فيه الحشائش والأعشاب على شكل بقع متناثرة ، ولكنه يكون جافاً تماماً في فصلي الصيف والخريف ؛ وأرض هذا الحزام مستوية بشكل عام ، ورتيبة وجرداء ، وترى في هذا الحزام صخرة منعزلة هنا أو هناك ، أو مجموعة من التلال الخفيضة ، وقد نشاهد في أحيان نادرة جداً سلسلة مستمرة من الارتفاعات الضئيلة ، المحددة المعالم الخارجية ، والتي تتخلل ذلك الحزام الصحراوي ، هذا هو القطاع الشمالي من تلك الحلقة الصحراوية التي تحيط بالجزء الأوسط من الجزيرة العربية ، وهذا هو ما يجعل الاتصال المعتاد صعباً بين ذلك الجزء والأراضي المجاورة له في كل من سوريا وبغداد ؛ وهذه الحلقة الصحراوية هي التي تعزل وسط الجزيرة العربية عن المناطق البحرية مثل الحجاز ، واليمن ، وعمّان ، وإذا ما توغلنا جنوباً نجد أن هذه الحلقة الصحراوية ، برغم استمرارها ، تتخذ شكلاً مختلفاً ، ولكننا سنتكلم باستفاضة عن

ذلك الجزء ، فى مرحلة لاحقة من هذا الكتاب ، عندما يحين أوان اجتيازنا لموضعه التى تقع على طريقنا .

وعلى أية حال، فإن الصحراء الشمالية ، التى هى محط اهتمامنا فى هذه المرحلة، تحتوى ، برغم قفرها وجديها ، على بعض المناطق الحظيطة نسبياً ، إذ الماء فيها غزير والحياة النباتية وفيرة ، وتشكل هذه الأماكن أفضل المنتجعات عند البدو ، كما تستعمل هذه الأماكن أيضاً فى تحديد المسارات المعتادة التى يسلكها مختلف الرحالة سواء أكانوا تجاراً أم لدوافع أخرى ، وأولئك الذين قد يخاطرون بعبور هذه البرية ، هذه الواحات ، إن كانت تستحق بحق أن نطلق عليها هذا الاسم ، تكونت نتيجة انخفاض طفيف فى سطح الصحراء المحيطة بها ، كما تشكل فى بعض الأحيان وادياً طويلاً ، أو إن شئت فقل رقعة من الأرض بوضاوية الشكل، تنعدم فيها التربة الزلطية والرملية ، لتحل محلها تربة مختلطة بالرمل ، وتخفى تحت سطحها مقداراً كبيراً من الرطوبة على بعد مسافة قريبة تحت الأرض ، ونتيجة لذلك تنبت فى هذا الوادى الأعجمات ، والحشائش ، والأعشاب ، كما أن فترة اخضرار الحشائش هنا ، إذا لم تكن على مدار العام فإنها أطول منها فى أى مكان آخر ؛ كما تتمو فى هذا الوادى أيضاً بعض النباتات المثمرة ، من الأنواع التى تفى باحتياجات البدو الحياتية الهزيلة ، وهذه الأشجار تنمو تلقائياً فى هذا المكان ؛ خلاصة القول ، إن الإنسان والحيوان لا يجدان العيش الوفير وإنما الضروريات التى تحفظ عليهما الحياة ، هذا هو وادى السرحان ، ومعنى هذا الاسم الحرفى هو "وادى الذئب" ، الذى ربما أطلق عليه هذا الاسم نتيجة تقليد قديم مفاده أن الذئب كان الحيوان الرئيسى فى ذلك المكان ، ولكن يبدو أن الأصل الدقيق لهذا الاسم ربما اندثر مع الكثير من ماضى العرب ، هذا المنخفض المتعرج الطويل يمتد فى الأصل ، من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، أو ما يشابه ذلك ، ويعبر نصف الصحراء الشمالية على شكل سُلَّم طويل تقع رأسه بالقرب من البصرة فى الحوران HOWRAN ، على بعد مسافة قصيرة من دمشق ، بينما ترتكز قاعدة السلم على الجوف، الذى يعد منطقة تمهيدية ومدخلاً إلى وسط الجزيرة العربية ، من هنا ، يجيئ وادى السرحان بمثابة الطريق المعتادة للأعمال المالية والتجارية المعتادة التى تتردد بين كل من سوريا والجوف ، زد على ذلك ، أن قبيلة بدو الروالة السورية العربية كبيرة العدد تسكن الطرف العلوى من ذلك الوادى ، فى حين يسكن عرب الشرارات الجزء الأوسط والجزء الجنوبي الشرقى ، ويكاد يكون مقصوراً عليهم .

وليس فى هذا الجزء من البلاد أى وادٍ آخر يماثل ذلك الوادى فى الطول ، أو فى الخصوبة ، باستثناء الجذب والقحط الشديد ، فالماء متوفر فى كل انحاء وادى السرحان ، وعلى عمق يتردد بين عشرة وعشرين قدماً ، والحياة النباتية وفيرة ومتنوعة فيه .

من هنا نبدأ أو بدأت ، أن صَحَّ التعبير ، أيام أن قمنا برحلتنا ، ممتلكات طلال ابن الرشيد ، أمير شومر SHOMER الذى يمتد نفوذه ويفرض اسمه الاحترام بل الخضوع على الصحراء كلها بدءاً من وادى السرحان فى اتجاه الشرق ، وعلى امتداد الوادى بكامله ، إضافة إلى نزاع على اللقب فى الناحيتين الغربية والشمالية . إذ برغم أن هذه الإحراج التى لا تزيد على ما أطلق عليه اللورد بايرون BYRON اسم المحيط ، تستعصى على كل محاولات الإنسان لاستصلاحها أو التغيير من طبيعتها ، إلا أن أجزاء هذه الإحراج التى تجاور مراكز السلطة والحكم المنظم قد تَغَيَّر ، بل تَغَيَّر فعلاً من وضعها ، على نحو أو آخر ، حتى تسير فى ركب الحكومة المتحضرة ، شأنها فى ذلك شأن أى جزء من البحر يكون مجاوراً لساحل من السواحل القوية عندما يختار الانضمام إلى هذا العلم أو ذاك ، الذى يجبر السفن الحاملة له على احترامه ؛ اللهم إلا إذا بلغت تلك السفنُ من القوة مبلغاً يُمكنُها من قبول التنازع وتحمله ، والحال هنا هو حال البدو الذين ولدوا على "سفن الصحراء" التى تسبح فوق هذه اليابسة التى تشبه بَحراً هائلاً ؛ وعليه ، يستطيع طلال بن الرشيد ، من خلال الجوف وحاكمه أن يجبر البدو على الرضوخ لأوامره فى كل أنحاء النصف الجنوبى من وادى السرحان والمناطق المتاخمة له .

دخلنا وادى السرحان فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو ، وسعدنا عندما وجدنا أنفسنا على الطريق السريع - برغم أن هذه العبارة لا يمكن أن تنطبق على أرض لم تعرف الطريق مطلقاً - المؤدى إلى الجوف ؛ فى حين راح البدو المرافقون لنا ، والذين سئموا مثلنا أكل التمر وخبز الجمر ، يمتنوننا بأوصاف الكرم الحاتمى الذى سنلقاه يومياً ونحن فى وادى الذئاب .

والواقع أننا ما أن دخلنا منطقة التلال الرملية التى تنتشر هنا وهناك فوق هذه الأرض الخفيضة ، حتى بدأنا نشاهد بين الحشائش عن قرب وعن بعد ، عديداً من الخيام السوداء مضارب أهل كيدار ، التى كانت تشبه ويلاً أدنى شك ما كانت عليه تلك

المساكن عندما شبهها سليمان SOLOMON (عليه السلام) بعروسه المصرية صاحبة البشرة الداكنة ، (رغم أنى لا أعرف إن كانت العروس المصرية تعد هذا التشبيه أو لا تعده من باب المجاملة) ، غير أن مظهر هذه الخيام بلغ من البؤس والشقاء حداً جعلنا نشك في صدق "حكايات" الكرم "الخرافية" التي حكاهما لنا البدو الذين كانوا يرافقوننا ، والحقيقة ، أن عرب الشرارات هم أفقر فقراء القبائل البدوية المترحلة التي تسكن الجزيرة العربية ، إذ ليس لديهم سوى أعداد قليلة جداً من قطعان الأغنام ؛ زد على ذلك أن وجود حصان فى القبيلة يعد أمراً نادراً ؛ وتتمثل كل ثروة كل هؤلاء البدو ، إذا اعتبرنا ذلك ثروة ، فى الإبل ، التي لا يحتاجها الناس ؛ وذلك على العكس من بدو الشمال ، من أمثال السباع ، والرواله ، والفظعان FIDHA'AN ، وإخوانهم ، الذين تتزايد قطعان أغنامهم وأعداد خيولهم بشكل يتمكنون معه من الاتجار بها ، الأمر الذى يجعلهم يحيون حياة المخلوقات المتحضرة تماماً أو فى مأمن من الحرمان والشقاء اللذين تنطوى عليهما الحياة البدائية تماماً ، المصير الحزين لأصدقائنا الجدد ، عرب الشرارات .

وعرب الشرارات الذين ينتشرون فى كل أنحاء ذلك الحزام الصحراوى الذى أتينا على وصفه ، والذين يتخذون من وادى السرحان مكاناً معتاداً يتجمعون فيه ، ليس لهم شيخ يعترفون به ، ولا زعيم أو رئيس ، وهؤلاء العرب ينقسمون إلى جماعات أصغر فأصغر لكل منها رئيس مستقل جدير برعاياه من جميع النواحي ، وعلى كل حال ، فقد أمكن مؤخراً تجميع هؤلاء الشيوخ وروءساء العشائر فى إطار شكل الإذعان والخنوع بفضل ذراع طلال بن الرشيد الصديدي ، وهم يدفعون له جزية سنوية من الإبل ، ويتذمرون منه يومياً ، ومع ذلك فإن المقابلات التى على وشك أن نبدأها مع هؤلاء البدو الرحل سوف توضح لنا طبيعتهم وظروفهم أكثر فأكثر .

وبينما كنا نتجاوز خيمه إثر أخرى ، مخلفين وراءنا بدواً كثيرين يرتدون أسماًلاً بالية ، ويرعون الإبل ، حدد لنا سليم العطنة SALEM فى النهاية مجموعة من المنازل ، كان من بينها منزلان أو ثلاثة أبعادها أكثر بكثير من أبعاد المنازل الأخرى ، وقال لنا : إن عشاعنا فى تلك الليلة (ذلك أن فترة المساء كانت قد قاربت على الانتهاء) سيكون على حساب هذه المنازل ، وأردف قائلاً ، تشجيعاً لنا على الاستقبال الأنيق المرتقب : "أجاويد" . وبطبيعة الحال ، لم يكن أمامنا سوى أن ندعن لما قاله سليم SALEM :

وخلال دقائق معدودة أصبحنا جنباً إلى جنب مع الحراس السود الذين يحتمون بأغطية مصنوعة من شعر الماعز الأسود ، التي يعيش تحتها المضيفون المرتقبون .

وظهر لنا الرئيس أو الرئيس ، لأنه لم يكن يزيد على ذلك ، وتبادل مع سليم SALEM بعضاً من الكلمات الموجزة المحددة ، وعاد إلينا سليم حيث توقفنا إنتظاراً لعودته، واقتاد إبلنا إلى مسافة قريبة من الخيمة ، وأبركها في ذلك المكان ، وساعدنا على إنزال أحمالها عنها ، وعندما اخترنا لأنفسنا مكاناً على منحدر رملي يواجه مضارب القبيلة ، أوصانا سليم بأن نحرص في مراقبه متاعنا ، إذ ربما يوجد لصوص أو نهايين بين مضيفينا لأنهم جميعاً "أجاويد بحق" ، وهذا خبر سيئ ! والسبب في ذلك أن كلمة "أجاويد" على لسان العرب تساوي على وجه التقريب الكلمة الدالة على "السيد أو الماجد" GENTLEMAN في اللغة الإنجليزية ، وهنا نقول : إذا كان السادة أو الأماجد لصوصاً فماذا يكون الحراس السود ؟ ووضعنا أعيننا على متاعنا ، ثم جلسنا على الرمل جلسة توحى بالرزانة والوقار ، انتظاراً للنتائج التي ستسفر عنها المفاوضات التي يجريها دليلنا سليم مع الحراس السود .

وبقينا لوحدها فترة من الوقت ، برغم أن من حولنا كانوا يراقبوننا ، فقد تجمعت مجموعة من العرب حول رفاقنا عند باب الخيمة ، وشغلوا أنفسهم بالحصول منهم على أكبر قدر ممكن من المعلومات ، التي تخصنا وتخص متاعنا بصفة خاصة ، ذلك المتاع الذي كان في آخر المطاف محطاً للفضول ، ولا أقول الجشع ، وجاء دورنا بعد ذلك ، إذ حضر الرئيس ، وأسرته (باستثناء النساء) ، وأتباعه المقربون ، ومعه عشرون آخرون ، من الشباب ومن كبار السن ، ومن الصبية والرجال ، وبعد تقديم التحية ، على طريقة البدو ، نظرنا لأنهم لا يعرفون ولا يقدمون التحية على الطريقة التركية أو الطريقة الفارسية التي دخلت إلى أماكن أخرى ، حضر الرئيس ومن معه وجلسوا أمامنا على شكل شبة دائرة ، كان كل واحد منهم يمسك في يده مشعاباً قصيراً يستعمل في قيادة الإبل ، كي يومئ به أثناء الكلام ، أو يتلاعب به خلال فترات المحادثة ، في حين كان الشبان الصغار أقل تعجلاً في الخطاب وراحوا في أدب يستثمرون وقت فراغهم في إطالة النظر إلينا وإصاخة السمع لحديثنا ، أو التقاط كريات الأوساخ من بين حبات الرمل ثم يلقون بها حولهم .

ولكن كيف لي أن أصف حديث هؤلاء البشر ، وأسئلتهم وإجاباتهم ، وسلوكياتهم ونكاتهم ؟ وقد سمعت غريباً وقوراً من بلدة حمص السورية ، تلك البلدة التي يضرب

بغناء سكانها الشديد المثل ، سمعت هذا الغريب الوقور يقول : "العاقل فى هذه المدينة شأنه شأن رجل رُبطَ بين قطيع من البغال داخل الإسطيل ؛ ولكن الضيف بين بدو الصحراء ، الذين يفتقرون إلى مزايا الإسطيل ، يشبه رجلاً وُضع فى وسط حقل بين بغال سائبة تمرح وترقس بأرجلها من حوله فى جميع الاتجاهات" ، هنا يمكن لنا أن نعرف الطبيعة البشرية فى أخط مراحلها ، أو نراها عن قرب تماماً ؛ فمن هؤلاء البدو من يتمدد باسطاً ذراعية وقدميه على الرمل ، وهذا آخر يرسم بمشعبه ، على الرمل ، خطوطاً لا معنى لها أو خارجة عن الموضوع ، أو يلقي نكأتاً يظن إنها ظريفة وفكهة ، ولكنها بذينة للغاية فى واقع الحال ، وفى الوقت نفسه ، تجد الصبية يندفعون إلى الأمام بدون أى ضوابط ويقطعون على الكبار حديثهم ، ولا يمكن أن أقول كبراءهم - دون أدنى اهتمام أو توقير .

وهم لا يرون فى كل ذلك أى دليل على الوقاحة ، أو أى قصد لمضايقة الغير ؛ وإنما العكس هو الصحيح تماماً ، فهم يودون من كل قلوبهم أن يتجملوا أمام الزائرين ، وأن يجعلونهم يتصرفون على راحتهم ، وأن يقدموا لهم أفضل ما فى وسعهم من الخدمات ، وكل ما فى الأمر أنهم لا يعرفون الوسيلة إلى تحقيق ذلك ؛ وهم عندما يخرجون عن حدود اللياقة والأدب ، فإن ذلك يكون بسبب الجهل المطبق ، وليس من قبيل الحقد المبيت ؛ وبين انعدام القصد فى ذهن غير مثقف تماماً ، يكشف هؤلاء البدو ، من حين لآخر عن دلائل تشير إلى قدر كبير من الكياسة والحصافة الفطريتين ؛ فى حين تظهر من خلال التقلب الذى يناسب الرجال الذين لم يعتادوا التمسك بالضوابط الأخلاقية أو الضوابط البدنية ، بنية أساسية لطبيعة رجولية كريمة ، من قبيل الطبيعة التى نجدها أحياناً ، إن لم يكن دوماً فى الفرس أو الأتراك ، إن عيوب البدو تكمن فى ظروفهم ، كما أن خصائصهم الافتدائية تنبع من داخلهم .

ما الحسنه التى يمكن أن تنتظرها ؟ فى واقع الأمر ، من أناس أمضوا كل حياتهم فى رعى الإبل فى البيداء الواسعة ، بلا قانون ، وبلا دين ، وبلا تثقيف وبلا أى مثل يحنون حنوه؟ وبدلاً من كل ذلك ، يعيشون فى عوز شديد ، وحرمان لا ينقطع ، وخطر دائم ، وأمن منعدم ، إنه التعليم الهمجى ؛ كما إنه من الطبيعى تماماً أن تُخرج مثل هذه المدرسة تلاميذاً من هذا القبيل ، إن كل ما أتمناه من كل أولئك الذين يعملون خيالهم فى إنتاج صور مثاليه للحياة الصحراوية ؛ ويفهمون البدو وظروفهم على إنها

جديرة بالإعجاب أو جديرة بالحق والحسد ، أتمنى لو أنهم قضوا ثلاثة أيام في مخيم من مخيمات عرب الشرارات ليروا - لا من خلال وسيط الروايات الرومانسية ، التي كتبت بداهة ، كما يقولون طلباً للمال - بأعينهم عمق الهوان الذي يمكن أن ينزل إليه عرق من أنبل الأعراق التي تعيش على الأرض ، بفعل تأثير الحياة البدوية الدنيئة .

وأنا أقول : واحداً من أنبل أعراق الأرض ، لأن هذا هو واقع العرب المستقرين ، الذين تحكمهم حكومات منظمة ، والواقع أنني بعد الأسفار الكثيرة التي قمت بها ويعد أن تعرفت تماماً على كثير من الأجناس الأفريقية ، والآسيوية والأوربية ، أجد من الصعب على أن أفضل أى عرق من الأعراق التي تعرفت عليها ، على عشائر وسط وشرقى الجزيرة العربية ، تلك العشائر خالصة النسب غير المهجنة ، وبرغم أن هذه العشائر يجرى في عروقها الدم نفسه الذي يجرى في عروق البدو الرحل في هذه الصحراء ، وبرغم أنها تتكلم نفس اللغة التي يتكلمونها إلا أنها أعلى وأرفع مقاماً منهم إلى حد بعيد جداً ، الفارق بين قاطع الطريق الهمجي والأجودى GENTLEMAN الإنجليزي في مدينة "روب روى" أو في مدينة "ويفرلى" ليس صارخاً تماماً ، واسمحوا لى أن أورد هنا بعض الأمثلة لملاحظات البدو ، حتى يكون القارئ على بينة منها .

عادة ما يبدأ خطاب البدو المعتاد الذى لا تسبقه أية مقدمات ، على النحو التالى : "ما عملك ؟ وما هو الهدف من مجيئك إلى هنا ؟ وأجبنا على هذه الأسئلة على النحو التالى : " نحن طيبيان من دمشق ، والهدف من مجيئنا إلى هنا هو ما كتبه الله لنا " ؛ وكان السؤال الذى تلى ذلك متعلقاً بمتاعنا ؛ بينما راح أحدهم يتحسس ذلك المتاع بمشعابه ، لسيترعى إليه الأنظار ، وهو يقول : "وما هذا ؟ هل لديكم أشياء صغيرة تبيعونها إياها ؟"

والعارفون بدقائق اللغة العربية ، يلاحظون ، عندما يلتقون هؤلاء الناس أول مرة ، مهما تدهورت أحوالهم الاجتماعية ، أن تعبيرات هؤلاء الناس ، مع بعض الإستثناءات الطفيفة جداً ، سليمة تماماً ، وأنها تخضع بشكل عام للقواعد الدقيقة ومقتضيات ما يسمى فى بعض الأحيان ، برغم عدم صحة هذه التسمية تماماً ، "اللهجات القواعدية" ؛ ولكن سوف يتعين على أن أعود إلى نفس الموضوع ، بالمزيد من الشرح والتفصيل ، عندما أصل إلى جبل شومر الذى اكتسبت ، أو بالأحرى احتفظت اللغة الدارجة فيه بأقصح وأنقى أشكالها المغربية ، هيا بنا ندع فقه اللغة جانباً فى هذه المرحلة ، ونعود إلى أولئك البدو الذين تركناهم فى حالة احتياج شديد بفعل متاعنا .

نحن نتجنب البيع : لأن مسألة عرض بضائعنا ومنقولاتنا أمام الجميع فى الهواء الطلق ، وعلى الرمل ، وأمام جمع لا يعطى مظهره ولا ظروفه أقل الضمانات التى تقضى بمراعاة الوصية الثامنة من الوصايا العشر ، هذه المسألة جدية بأن نوليها حرصنا واهتمامنا ، وبعد عديد من المحاولات التى باءت بالفشل ، كف هؤلاء الناس عن طلبهم ، وهذا بدوى آخر يعانى من عيب جسمانى ، تفشل فى علاجه كليات لندن وباريس مجتمعة ، مثل اليد الضامرة أو العين العمياء تماماً ، يطلب دواءً ، يتوقع ، بعد أن يستعمله مباشرة ، أن يستعيد به كامل عافيته وصحته وسلامته ، ومع ذلك ، فقد سبق لى أن تلقيت تحذيراً مفاداً أن البدوى هو البدوى سواء أكان يعيش فى ظروف طيبة أم مع الإبل ، وبنفس القدر من الحماس رفضت طلبه فى أدب ، ووجدته مصراً على طلبه ؛ ولكنى رددته إلى حال سبيله بكلمات ظريفة .

وأجابنى الرجل بصوت يشبه الأنين ، فى حين قطب الصبية عن جباثهم ، دون وعى منهم ، مشاركة منهم لذلك القبلى الحزين . ، رد على الرجل قائلاً : "إذا فائتم تسخرون منا يا سُّكَّانِ الحضر ، نحن بدو ، ولا نعرف شيئاً عن عاداتكم ."

وينادى أحدهم الذى لاحظ أن غليونى كان لا يزال مملوءاً بالتبغ والذى أراد أن ينتهز الفرصة لاستجداء القليل من التبغ - برغم إنه كان لديه مخزوناً كبيراً منه وضعه فى خرقة ربطها إلى حزامه الملوث بالشحم - طالما إنه لم يستفد من الطب أو التجارة ، ينادى هذا البدوى قائلاً : "يا ولِيد" ، (فهذا هو الاسم الذى ينادون به الذكور من سن الثامنة إلى الثمانين وبلا أى استثناء) . "هلاً ملأت غليونى بالتبغ ؟"

ولكن سليم SALEM الذى أصابه الخوف والفزع بين الحاضرين أعطانى إشارة بعدم الموافقة على ملئ غليون البدوى بالتبغ، وبناء عليه رفضت ذلك الطلب، وبرغم ذلك ، واصل البدوى التماساته ، وحذى حنوه اثنان أو ثلاثة آخرون ، مدُّ لى كل واحد منهم (إيماءة إيرلندية صرفه) قطعة من عظام النخاع ، مثقوبة من أحد طرفيها حتى يتسنى استعمالها غليوناً للتدخين ، أو حجراً مسامياً ، لا يشيع استعماله فى الصحراء ، ومشكل بطريقه بدائية تماماً ليكون جهازاً للتدخين ، أو إن شئت فقل إنه غليون مرشومى .

ومع ازدياد وقاحتهم ، ازداد غضبى أيضاً ، إذ كنت أقاطعهم قائلاً : "أيها البدو ، إننا ضيوف عليكم ؛ ألا تخجلون من سؤالنا ؟" ويتدخل أحد الحاضرين الذين يجلسون

بجوار الرئيس وتبدو ملابسه أفضل حالاً من أولئك الأفراد الآخرين أنصاف وثلاثة أرباع العرايا الذين يكملون تلك الجماعة ، تدخّل هذا الرجل قائلاً : لا عليك ، لا تؤاخذنا ؛ إنهم رفاق جهال ، أوغاد عديمو التربية ... إلخ .

ويردّ رئيس المجموعة قائلاً : "هل تؤهل بالتبغ غليون أخيك الصغير؟" ثم يمد إلى غليونه الفارغ مع شيء من التواضع ، ولغة البدو ، شأنها شأن لغة السواد الأعظم من الشرقيين تزخر بالصور الرشيقة الأنيقة ، ومن ثم فإن كلمة "يؤهل" PEOPLE تدل على الكلمة "يملا" FILL ، ويعطيني سليم إشارة بالموافقة ؛ وأتناول حفنة من التبغ ، وأضعها على كم قميص الرئيس ، الذي يقوم بدوره بربط كم القميص حول التبغ ، ثم تبدو عليه بعد ذلك دلائل البشر والسرور ، إن هؤلاء البدو يسهل أرضاؤهم تحت أي ظرف من الظروف .

والحوار الذي يكون من هذا القبيل والأنماط الكلامية المماثلة له هي التي تزجي الوقت بسرعة ، فمن البدو من ينهض وينصرف ، ومنهم من يجلس محل الذين انصرفوا ، وكلهم لديهم ملاحظات أو استفسارات ؛ في حين سنحت الفرصة لنا تماماً بدراسة طبيعة أولئك البدو ، وميولهم ، وعاداتهم ؛ لأنهم كلما ابتعدوا عن التفكير في حقيقتنا ، زاد تخليهم عن حرصهم وحذرهم .

غير أن الرئيس ، بعد أن أعطيته نصيبه من التبغ ، الهدف الرئيسي للزيارة ، إن قدر لي أن أقول الحق ، عاد إلى خيمته ليصدر منها الأوامر اللازمة للترفيه المنتظر ؛ وبعد ذلك بفترة قصيرة، شاهدنا مجموعة من الأفراد العاطلين وقد تجمعوا في الخلف؛ وتلك إشارة إلى المكان الذي يجري فيه ذبح شاة أو جمل ، تبعاً للظروف ، استعداداً لوجبة العشاء ، وبعد ذلك بفترة قصيرة أبصرنا الذبيحة ممددة بالقرب من أحد أركان الخيمة ، ليتم تقطيعها بواسطة المختصين على مرأى ومسمع جمهور من المشاهدين المهتمين بهذه العملية ، والسبب في ذلك أن المخيم بكامله سوف يشارك في المأدبة التي ستقام على شرف الضيوف .

وبقينا لوحدا فترة من الوقت، نظراً لأن الطهو يبلغ من الأهمية حداً يسمح بتغيب الجيران الذين يشاركون فيه ، ففي أوربا يقال إن كثيراً جداً من الطهاة يكون تأثيرهم سيئاً على المرق ، ولكن الطهو في هذا المكان من الجزيرة العربية يبلغ من السهولة حداً يصعب عنده تلف الطعام ، ومسألة إشعال النار من تحت مرجل كبير لم

يطهر مطلقاً ، ثم تسخين الماء إلى أن يغلى ، ثم بعد ذلك إلقاء أرباع الذبيحة فى الماء إلى أن تصبح شبه ناضجة فى شحمها ، هذا هو كل فن الطهو فى ولائم البدو ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل .

ومع ذلك ، فإن هذه العملية تستغرق شيئاً من الوقت ؛ والسبب فى ذلك أن النار التى يشبها الناس فى الهواء الطلق لا تعمل عملها بسرعة كما لو كانت فى موقد داخل المطبخ ، زد على ذلك أن كتل اللحم الكبيرة لا يمكن تقطيعها بسرعة إلى قطع تناسب الأكل ، من هنا ، تكون النجوم قد ظهرت فعلاً فى السماء ، ويكون نسيم الليل قد برد الرمال ، قبل أن نسمع الجلبة المعتادة بين الواقفين وتدافع الشرر الذى يوحى بأن المرجل قد رُفع أخيراً عن الأحجار التى كانت تعمل عمل التنور ، ويتم بعد ذلك التخلص من الماء ، ثم يُكْوَم اللحم بطريقة عشوائية فى طبق خشبى كبير شديد الاتساع ، ويدون أى تتبيل أو إضافات أو أى شئ آخر ، ثم يوضع ذلك الطبق على الأرض فى منتصف المسافة فيما بيننا وبين الخيام .

ثم يحضر الرئيس ، أو شاب بدون سروال طويل من أفراد أسرته ، ليقول لنا : "تفضلوا" ، بمعنى شرفونا بقبول دعوتنا ، ويعدّها تقترب من الطبق ، ولكننا سمعنا ، قبل أن نتخذ أماكننا حول الطبق ، سمعنا اندفاعاً من جميع الأنحاء فى اتجاه مركز الجذب العام ، وتكونت دائرة كبيرة راحت تنتظر فى صمت إشارة البدء والذى يعطى إشارة البدء هو الرئيس ، الذى يكرر صيغة الترحيب نفسها ، وهنا يتناول سليم ورفيقي (وأنا أعترف هنا أنني كنت أعزف دائماً عن هذه المناسبات لا بسبب الشبع وإنما لأن نفسى كانت تعافها) وصلة كبيرة من اللحم شبه الناضج ، ويشداها فى اتجاهين عكسيين ، ويقسماها إلى قطع يسهل تناولها أو التعامل معها ، ثم يبدأ الجميع فى تناول الطعام ، وتمتد إلى الطبق ثلاثين أو أكثر من الأيدي غير المغسولة ، وخلال خمس دقائق جرى جمع العظم الخالى تماماً من اللحم ليقدم غذاءً للكلاب الهزيلة ، التى تقوم بالحراسة ، وبذلك يصبح العظم هو كل ما تبقى من هذه المائدة .

ويكرر المضيف الكلام نفسه على فترات قصيرة ، ويستعرض أسلوب الكرم بأن يكون هو نفسه مثلاً طيباً عليه فيقول : "لماذا لا تأكلون ؟ كلوا ، اشتغلوا ؛ يا منة مرحبا بضيوفا الكرام" ، وإن جاز لى أن أبدى ملاحظة هنا فإننى سأقول : إنه لو قدر للسلطان نفسه أن يكون فى مكاننا ، فإنه لن يحصل على أحسن من ذلك ، والسبب فى

ذلك ، بسيط للغاية ، وهو أن عرب الشرارات ليس لديهم أفضل مما يقدمونه في هذه المناسبة .

ثم يمرر ، الماء الذى له نكهة النوشادر النفاذة ، والذى يجرى جلبه من منطقة قريبة جداً من الإبل ، إلى الآبار التى يجرى فيما بعد سحبه منها للاستعمال ، يمرر هذا الماء على كل من يرغب الشرب ، فى سطل صغير ، لا يجد مكاناً له فى إنجلترا إلا بجوار لجام مهر صغير ، وأيا كان الأمر ، فنحن عندما نشارك فى الشرب من محتويات ذلك السطل ، لا ينسى من سياتخذ من السطل بغيثته أن يقول : "هنا" أو "بالصحة" ، وذلك من قبيل المجاملة ، ويشير إلى أن نمرر له السطل .

ثم ننصرف بعد ذلك عائدين إلى متاعنا والمنحدر الرملى ؛ والسبب فى ذلك أن النوم فى خيمة المضيف ليس من عادات الحياة البدوية الحقيقية ، زد على ذلك أن صغر حجم المنزل الذى تتزاحم فيه أسرة من جميع الأجناس ، وعدم تقسيمه إلى غرف مستقلة ، هو الذى يفسر هذا الاستعمال الحذر ويبرره ، ذلك الاستعمال الذى ليس له علاقة بالكرم مطلقاً .

وهواء الليل فى هذه القفار هو بحد ذاته حياة وصحة ، فنحن ننام نوماً عميقاً دون إزعاج من أحد يوقظنا فى ساعة مبكرة لنواصل مسيرتنا فى صباح اليوم التالى ، والسبب فى ذلك أن البشر والحيوانات يحتاجون على حد سواء ، إلى أن يرتاحوا يوماً كاملاً ، وعندما تشرق الشمس يدعوننا إلى خيمه الرئيس ومعنا متاعنا ليكون فى حماية تلك الخيمة ، وهدف المضيف الرئيسى ، من هذا التصرف ، هو محاولة الاستفادة لنفسه ، بصورة أو بأخرى ، من هذه الزيارة ، إما عن طريق التهادى أو الشراء ، والرئيس يتلاعب هنا بكل ما فى وسعه من أدب ، وسرعان ما يظهر على المسرح سطل من حليب النياق ، ذلك المشروب الممتاز ، ويتعين على هنا ، أن أترك للمحللين الكيماويين مسألة تحديد الأسباب التى لا تجعل هذا النوع من الحليب ينتج زبداً ، لأن هذا هو الواقع ، ويكفينى أن أشهد هنا على أن هذا النوع من الحليب له خصائص مفيدة ومغذى بدرجة كبيرة جداً .

ثم نقوم بعد ذلك ، وبناء على طلب مُلح من الرئيس ، ومن زوجته ، وأخواته ، وأبناء عمومتهم ، ولإطلاعهم الخاص وليس أحد سواهم ، نقوم بفتح ركن من زكائنا ، وبعد كثير من المساومة والمحاكة نبيع لهم قطعة من القماش ، أو عصاة رأس ، أو أى

شئ من هذا القبيل ، والمشكلة هنا تتمثل فى دفع ثمن الشئ المباع ؛ ذلك أن صديقنا ليس على استعداد تماماً فحسب للتخلى عما يملكه من نقود ، وإنما لأنه جاهل تماماً بالقيمة النوعية المحددة لمكونات تلك النقود ، وتأسيساً على ذلك ، يتعين عقد مجلس من حكماء القبيلة للبت فى قيمة كل قطعة من قطع النقود المعدنية، وبعد تحديد هذه القيمة، تجرى عملية التجميع الإجمالى ، وهى عملية تتطلب من البدو مجهوداً ذهنياً جباراً ، إذ أن عملية الحساب هذه تتكرر بنودها عشرات المرات قبل أن يعرف البدوى إن كان ما بيده المتسخة هو عشرون أم ثلاثون قرشاً .

سوف أتكم عن النقود المعدنية السائدة فى الجزيرة العربية عندما أصل إلى جبل شومر أو الرياض ؛ والسبب فى ذلك أن إعطاء فكرة واضحة عن هذا الموضوع قد يحتم على أن استطرده فيه لفترة طويلة جداً تبعدنى عن موضوع البدو .

ويمضى النهار ، ومن الطبيعى تماماً أن يظن مضيفنا أننا جائعون ، ويترتب على ذلك إحضار طبق جديد إلينا ، يشبه إناء كبير به عجين مجروش أحمر اللون ، أو الردة المخلوطة بالمغرة^(١) الصفراء ، وهذه مادة يعيش عليها بدو شمالى الجزيرة العربية ويطلقون عليها اسم سمح SAMH ، وينمو خلال ذلك الجزء من الصحراء ، نبات عشبى مسامى ، سيقانه كثيرة العصارة وأوراقه صغيرة بيضوية الشكل تميل إلى الاصفرار ؛ وزهور هذا النبات صفراء فاقع لونها ؛ تحتوى على كثير من أعضاء التأنيث وأعضاء التذكير ، وبعد أن تتساقط زهور هذا النبات تخلف وراءها كبسولات كل واحدة منها مغلفة فى أربع ورقات ، وهى فى حجم حبة البازلاء المعتادة ، وعندما تنضج تلك الكبسولات ، تنفتح لتكشف بداخلها عن مجموعة من الحبوب الصغيرة التى يميل لونها إلى الاحمرار ، تشبه البرغل (الجريش) من حيث الملمس والمظهر ، ولكنها تنتمى إلى المواد النشوية ، وموسم نضوج هذه النباتات يكون فى شهر يوليو ، الذى يخرج فيه الكبار والصغار ، والرجال والنساء لحصاد ذلك المحصول الذى لم يبيذروه ولم يقلحوه ، وهم يجمعون الكبسولات، ويفصلون الحبوب عنها ، ويحتفظون بها كمخزون من الدقيق (الطحين) للعام المقبل ، والبدو عندما يحتاجون هذه الحبوب ، يجرشونها فى راحة ، ثم يخلطونها بالماء ، ويسلقونها فى المادة الموجودة أمامنا الآن ، وقد وصف سليم مذاق

(١) أكسيد حديدك مائى يكون لونه أصفر أو أحمر (المترجم) .

ونوعيه هذه المادة وصفاً سريعاً ، عندما قال : "إنها ليست فى جودة القمح (البر) ، ولكنها أفضل من وجبه الشعير" .

لقد شكرنا العناية الإلهية التى وفرت لهؤلاء البدو الرُّحل مادة يعيشون عليها ، والتى لولاها لتعرضوا لمخاوف وأهوال الموت جوعاً ، لقد بلغ هؤلاء البدو من الكسل مبلغاً كبيراً لا يستطيعون عنده فلاحه الأرض أو زراعتها حتى وإن توفرت المياه الجوفية التى تجعلها صالحة للزراعة ، ولولا هذا النبات ، لاقتصر هؤلاء الناس فى معيشتهم على حليب ولحوم الجمال التى يرعونها ، وهذا بحد ذاته ليس مصدراً كافياً للغذاء ، فى حالة عدم توفر مصادر أخرى ، غير أن نبات السمح ، الذى ينمو فى كل مكان بشكل طبيعى ، ويعطى إنتاجاً بدون زراعة أو فلاحه ، هو الذى يسد هذا العجز وهو الذى يشكل أيضاً المادة الأساسية فى غذاء هؤلاء البدو ، إنه مادة الحياة بالنسبة لهم ؛ وبرغم أن السمح لا يغنى تماماً من الجوع أو غير مستساغ من أولئك الذين اعتادوا تناول غذاء أفضل منه ، إلا أنه يشبع أولئك الذين نادراً ما تناولوا أولم يتناولوا قط شيئاً مغدياً أو أفضل من السمح .

والمصاع نعمة أخرى من نعم الطبيعة ، وهو عبارة عن ثمرة شهيرة لدى البدو ، برغم أن غيرهم يتجاهلونها، وشجيرة المصاع يتردد ارتفاعها بين قدمين وثلاثة أقدام ، وشجيرات المصاع شجيرات غابيه ومتشابكة ، ولها أوراق صغيرة مدببة شديدة الاخضرار ، وزهورها تشبه النجوم وتميل إلى الاحمرار ، وبعد أن تتساقط هذه الزهور فى شهر يونيو ، تخلف وراءها قروناً تشبه إلى حد كبير حبة الكشمش^(١) الأوربية من حيث الحجم ، واللون ، والمذاق ، ولكن ليس لها النكهة نفسها ، فى حين تتفوق حلاوتها على حموضتها تفوقاً كبيراً ، والبدو يجمعون ثمرة المصاع ويلتهمونها ، أو يسلقونها فى شئ من الماء ، ليحصلوا بذلك على نوع من الدبس ، الذى يحترمه البدو ، وحدهم ، احتراماً كبيراً ، وبذلك نجد أن قائمة مأكولات البدو تتكون من المصاع والسمح ، الذى أتينا على ذكره ، وحليب النياق ، ووجبه موسمييه من لحم القصاب ، برغم أن هذه الأخيرة تعد شكلاً من أشكال الترف النادر .

وليس من بين أفراد قبيلة الشرارات كلها أحد يتفاخر بامتلاك دلة القهوة أو القهوة نفسها ؛ لأن ملكية الأشياء التى من هذا القبيل جماعية بين البدو العرب -

(١) حبة مثمرة من الفصيلة الكشمشية تزرع لثمرها (المترجم) .



المشروع القومي للترجمة

Central And Western Arabia

William Gifford Palgrave

هذا الكتاب كتبه مؤلفه منذ ما يزيد على مائة وثلاثين عاماً ، ويتناول فترة زمنية مراجعها السياسية نادرة جداً وغير دقيقة ، وإذا كان بوكو Pocoke الفرنسى ، وبركhardt Burckhardt ونيبور الألمانين قد كتبوا عن هذه المنطقة من الناحية الجغرافية أو الطبوغرافية فقط ، بحكم أن ما كتبه كان على مرأى ومسمع من السلطات التى كانت تقوم على أمر تلك المنطقة فى ذلك الوقت ، فإن كتاب "وسط الجزيرة العربية وشرقها" يتناول الجانب الديموغرافى والأنثروبولوجى الذى غاب عن هؤلاء المؤلفين .

ومؤلف هذا الكتاب إنجليزى دماً ولحماً ، أعد نفسه لموضوع هذا الكتاب إعداداً جيداً ؛ فقد درس العربية إلى أن كادت تكون لغته الأم ، فضلاً عن إجادته للغات الفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، وكذلك اللغة اللاتينية ، ومعرفته أيضاً للغة اليونانية القديمة ، كما درس أيضاً مقررراً فى طب المناطق الحارة .

وتستمر رحلة هذا المغامر عاماً كاملاً ، يجمع خلاله مادة علمية أصيلة ، من أفواه الناس ، ومن ملاحظاته الشخصية ، ليكتب كتاباً فى مجلدين إجمالى صفحاتهما حوالى ألف ومائتى صفحة من القطع الكبير .

وعلى الصعيد اللغوى يندرج الكتاب ضمن الأدب الراقى ، ودقة مؤلفه فى اختيار ألفاظه ومصطلحاته تغيظ قارئ النص الإنجليزى ، وتفصيل الكتاب كثيرة وتشدد الانتباه وتوحى بغزارة مادته .

والكتاب جريئ سياسياً ؛ لأنه يتعرض لكثير من الأمور السياسية الحساسة التى لا يعرف كثير من المثقفين وصناع القرار حقائقها الأصلية ، كما يكشف الكتاب أيضاً عن كثير من حقائق المطبخ السياسى فى ذلك الوقت ، وسيثير الكثير من الجدل السياسى والعلمى ، ويصحح كثيراً من المفاهيم المغلوطة .

الجزء الأول

Bibliotheca Alexandrina



0274312

المكتبة الوطنية